الرسالة ٣٩٠

علاقة الهوية باللغة بين التنظير والواقع

المجتمع التونسي نموذجا

أ.د. محمود الذوادي

قسم الاجتماع - جامعة تونس

تونس

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - الحولية الرابعة والثلاثون - ١٤٣٥ هـ / ٢٠١٣م

المؤلف

الأستاذ الدكتور محمود الحبيب الذوادي

– دكتوراة في علم الاجتماع عن أطروحتي: مفهوم الحداثة في علم الاجتماع الأمريكي – جامعة منتريال – كندا ١٩٧٩.

الإنتاج العلمي :

أولا – الكتب :

أ – باللغة العربية :

١ – المقدمة في علم الاجتماع الثقافي برؤية عربية إسلامية، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات ٢٠١٠.

٢ – الوجه الآخر للمجتمع التونسي الحديث، تونس، تبر الزمان ٢٠٠٦.

٣ – الثقافة بين تأصيل الرؤية الإسلامية واغتراب منظور العلوم الاجتماعية، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة ٢٠٠٦.

٤ – أضواء جديدة على محددات العقل العمراني الخلدوني، تونس، مركز النشر الجامعي ٢٠٠٣ .

٥ – التخلف الآخر: عولمة أزمة الهويات الثقافية في الوطن العربي والعالم الثالث، تونس، الأطلسية للنشر ٢٠٠٢.

٦ – الابتكار في العلوم الاجتماعية: الهامشية الخلاقة، دمشق، دار طلاس للدراسات والنشر ١٩٩٧ ترجمتُه من الفرنسية إلى العربية.

٧ – علم الاجتماع الغربي: مساءلة ومحاكمة، هرندن، الولايات المتحدة الأمريكية. المعهد العالي للفكر الإسلامي ٢٠١١، ترجمتُه من الإنكليزية إلى العربية.

٨ – قراءات في رواق مكتبة العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، مجمع الأطرش للكتاب المختص ٢٠١١ .

٩ – قراءات في رواق مكتبة العلوم الاجتماعية حول الجريمة و الانحراف، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات ٢٠١٢.

١٠ – الازدواجية اللغوية الأمارة وارتباك الهوية وتصدعها في المغرب والمشرق العربيين، تونس، تبر الزمان ٢٠١٣.

١١ – المختصر في الجدال حول النظرية الاجتماعية اليوم (أصل الكتاب بالإنجليزية)، هرندن، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ٢٠١٣.

ب – باللغتين الإنجليزية والفرنسية :

12 - *L'univers des symboles humains, l'Autre sous-développement au Maghreb et au Tiers-monde*, Tunis, L'Or du Temps 2010.

13 - *Globalization of the Other Underdevelopment :Third World Cultural Identities*, Kuala Lumpur, A.S. Noordeen 2002

14 - *New Explorations into the Making of Ibn Khaldun's Umran Mind*, Kuala Lumpur, A.S. Noordeen 1997.

15 - *Toward Islamic Sociology of Cultural Symbols*, Kuala Lumpur, A.S. Noordee, 1996.

16 - *Cultural Sociology within Innovative Treatise: Islamic Insights on Human Symbols*, Lanham, University Press of America, 2013.

ثانيا – الأبحاث : نقتصر على ذكر ٦ أبحاث فقط بلغات ثلاث :

١ – مقولة «يرحل الكبار ولا يرحلون» في ميزان نظرية الرموز الثقافية، **المستقبل العربي**، العدد ٣٩٦ / فبراير ٢٠١٢.

٢ – مكانة الرموز الثقافية في الطبيعة البشرية، **علم النفس**، العددان (٩٤–٩٥) يوليو – ديسمبر ٢٠١٢.

٣ – نظرية الرموز البشرية وقواعد تأثيرات أنماط السلوكيات الجماعية على سلوكيات الناس، **مجلة العلوم الاجتماعية**، المجلد ٣٩، العدد ١، ٢٠١١.

٤ – تجليات العبر في عقل صاحب المبتدأ والخبر، **المستقبل العربي**، العدد ٣٢٩، يوليو ٢٠٠٦.

5 - Ibn Khaldoun : le Printemps arabe des sciences sociales et humaines, *Dirasat*, Vol.40, no 1, 2013.

6 - Alternative Discource on the Study of Culture, *Journal of Social Sciences*, Vol. 40, no 3.

الفهـرس

موضوع البحث: أسبابه ومنهجيته :..... ١٥
أولا – مشكل اللغة العربية في الوطن العربي ١٥
ثانيا – سلطان اللغة الفرنسية في المجتمع التونسي ١٥
ثالثا – العوامل النفسية والاجتماعية نحو اللغة العربية ١٦
رابعا – التنظير حول علاقة الهوية باللغة ١٦
خامسا – منهجية البحث ١٧
القسم الأول : اللغة وهوية الإنسان في البحث الأساسي :.....١٩
اللغة رمز هوية الإنسان ١٩
موضوع اللغة في البحث الأساسي ٢٠
غياب اللغة في أشهر تعريف للثقافة ٢٣
الإنسان كائن لغوي ثقافي بالطبع ٢٤
منظور جديد للطبيعة اللغوية الثقافية للإنسان ٢٤
غياب الشجرة وحضور فروعها في العلوم الاجتماعية ٣٠
ندرة بحث الموضوع في الأدبيات العربية والغربية ٣٣
القسم الثاني : اللغات وقضية الهوية في المجتمع التونسي وغيره: ٣٧
أضواء فكرية على علاقة الهويات باللغات ٣٧
الخريطة اللغوية للمجتمع التونسي ٤١
العلاقة النفسية والاجتماعية بين التونسيات والتونسيين واللغة العربية ٤٢
اللغة الفرنسية غنيمة ٤٦
هل الفرنسية غنيمة للشعب التونسي؟ ٤٧
حضور الفرنسية وخسارة العربية: ٤٧

الفرنسية نعمة أم نقمة على اللغة العربية ٥٠
معالم اغتراب اللغة العربية في المجتمع التونسي ٥٢
قراءة المؤشرات بعدسة العلوم الاجتماعية ٥٤
إمكانية أن تكون اللغة الأجنبية غنيمة ٥٥
لغات التدريس بالمجتمع التونسي ٥٩
النظام التربوي التونسي ودوره في وضع اللغة العربية ٦٠
علاقة التونسيات والتونسيين بلغتهم الوطنية ٦١
مواقف خريجي نظم التعليم من اللغة العربية ٦٤
لغة الضاد في المجتمع التونسي بعد الاستقلال :..... ٦٧
١ – في النظام التربوي ٦٧
٢ – النخب السياسية واللغة العربية ٦٩
مواقف/ اتجاهات المجتمعات نحو لغاتها الوطنية ٧١
خريطة علاقة التونسيات والتونسيين باللغة العربية ٧٢
القسم الثالث : الجندر واستعمال اللغة: اللغة الفرنسية وإشكالية هوية المرأة التونسية :... ٧٥
المرأة التونسية وسلوكها اللغوي ٧٥
الجنس والنوع الجنسي ٧٦
فقدان المفهومين في علم الاجتماع العربي ٧٧
اللغة الأم عند اليونسكو ولدى المرأة التونسية ٧٨
عينة لحديث التونسية ٧٩
تسلط استعمال الفرنسية على التونسيات ٨٠
الفرنكو أراب اللغة الأم عند التونسيات ٨١
اللغة الأجنبية وبث مركب النقص ٨٢
شعار التفتح على الآخر ٨٤

دلالات النبرة الباريسية عند المرأة التونسية ٨٥
الحداثة وتقليد الآخر ٨٦
النبرة الباريسية جزء من كلّ ٨٧
الحتمية الاجتماعية والنفسية والثقافية والسلوك اللغوي ٨٨
الحداثة مصدر مشاكل لدى التونسيات ٨٩
خلاصة القول ٩٣
المراجع ٩٦
مراجع مختارة ١٠٠

الملخص

يطرح هذا البحث رؤية معرفية «إبستيمولوجية» **جديدة** حول علاقة اللغات بهويات الأفراد والمجتمعات البشرية. ترى هذه الرؤية أن استعمال الإنسان للغة في شكليها المكتوب والمنطوق هو أكثر ما يميزالكائن البشري عن غيره من الكائنات الحية. ومن ثم، **فاللغة هي المحدد الأول لهوية الإنسان** ككائن فريد على وجه الأرض. فمن منظورالبحث الأساسي يعتبر الإنسان إذن كائنا لغويا بالطبع. فهذا الجانب **النظري** حول تأكيد دور اللغة الحاسم في تحديد معالم هوية الإنسان لا نكاد نجد له ذكراً في العلوم الاجتماعية الغربية الحديثة كما يشير إلى ذلك الجزء الأول من هذا البحث. وتناسقاً مع مقولة الطرح النظري، فمعطيات الجانب **الميداني** من واقع الأفراد والمجتمعات **تعزز** مصداقية تلك العلاقة بين اللغة والهوية لدى الإنسان. إذ تفيد الملاحظات والمؤشرات الميدانية أن المجتمعات التي تسود فيها لغة وطنية واحدة **تعرف هي وأفرادها هويتهما بتلك اللغة** كما هو الحال في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا. ويتأكد تأثيراللغات على تشكيل هويات الأفراد والمجتمعات حينما توجد أكثر من لغة وطنية في مجتمع واحد كما هو الوضع في العراق. فأكراد العراق يعبرون عن انتمائهم إلى الهوية الكردية في المقام الأول بسبب أن لغتهم الأولى هي الكردية وليست العربية اللغة الرسمية للمجتمع العراقي الكبير. يدرس البحث في جزئيه الثاني والثالث ظاهرة **الازدواجية اللغوية بالمجتمع التونسي**: استعمال اللغتين العربية (الوطنية) والفرنسية (الأجنبية). وبالرغم من الانتشارالواسع للفرنسية خاصة بين النخب والطبقات الاجتماعية العليا والوسطى، فإنه لا يكاد يوجد في المجتمع التونسي من يرغب في الانتساب إلى الهوية الفرنسية. وفي ذلك إشارة إلى أن اللغة الأصلية للناس هي المحددة لهويتهم. لكن انتشارالفرنسية يحدث **ضررا** في علاقة التونسيات والتونسيين باللغة العربية على مستويين: ١- بروز ظاهرة ما أسميه **الازدواجية اللغوية الأمارة** التي تجعل معظم التونسيين يستعملون اللغة الفرنسية بدل اللغة العربية مثلا في كتابة صكوكهم المصرفية ونطق الأرقام والقيام

بإمضاءاتهم. كما أنه لا يكاد يلاحظ الباحث الاجتماعي عند الأغلبية منهم سلوكيات الغيرة والتحمس والدفاع عن اللغة العربية. ٢- تقترن الازدواجية اللغوية الأمارة **بمعالم تشويش** وارتباك وحتى نكران للهوية العربية خاصة لدى عينات من النخب السياسية والثقافية والنسائية التونسية صاحبة التعليم المزدوج الذي تهيمن فيه اللغة الفرنسية وثقافتها، كما يشرح ذلك الجزءان الثاني والثالث. وفي المقابل نجد **انتماء صلبا للهوية العربية** لدى خريجي التعليم الزيتوني القديم والحديث حيث اللغة العربية هي السيدة كلغة تعليم وتدريس وثقافة.

الكلمات المفاتيح: اللغة، هوية الإنسان، المجتمع التونسي، الازدواجية اللغوية الأمارة، هوية تونسية مضطربة.

*** علاقة اللغة بالهوية بين التنظير والواقع: المجتمع التونسي نموذجا.**

موضوع البحث : أسبابه ومنهجيته

توجد أربعة أسباب رئيسية وراء موضوع هذا البحث دفعت الباحث لكتابة هذه الدراسة. ويمكن تقسيم هذه الأسباب إلى صنفيْن: ١ – مشكل اللغة العربية في مجتمعات الوطن العربي و ٢ – الفضول المعرفي للباحث لفهم وتفسيرذلك المشكل برؤية العلوم الاجتماعية، من ناحية، والتنظير حول علاقة اللغة بالهوية لدى الأفراد والمجتمعات، من ناحية أخرى.

أولا – مشكل اللغة العربية في الوطن العربي :

إن حال اللغة العربية في المجتمعات العربية اليوم ليس على ما يرام. بل ذهب مؤتمربيروت في مطلع شهرنيسان ٢٠١٢ إلى إصداروثيقة تقول «اللغة العربية في خطر». وتنقل جريدة الشرق الأوسط في ٢٠١٢/٠٤/٠٨ ما أجمع عليه المؤتمرون: «.. إن ثمة أزمة كبيرة تواجه اللغة العربية وإنها تزداد يوما بعد يوم بتأثيرالتغيرات والتطورات والتراكمات التي أدت إلى هذه الأزمة الخطيرة.....بأن التراجع الكبيرالذي يحدث للغة العربية ليس لضعفها أو لعدم قدرتها على استيعاب كل المستجدات والعلوم والتقنيات والصناعات والمعارف، ولكن لضُعف إعداد أبناء وبنات المجتمع وتأهيلهم وتربيتهم وتعليمهم، وعدم تحميل المؤسسات الحكومية والأهلية والوطنية والعربية والأفراد المسؤولية كاملة تجاه اللغة العربية وفق سياسات وإستراتيجيات مبنية على قرارات وطنية وعربية على مستوى القيادات في الوطن العربي».

فهذا الوضع الراهن الرديء للغة الضاد في المجتمعات العربية جعل الباحث غيرقادر على تبني موقف اللامبالاة من هذه الظاهرة. وهوعالم الاجتماع الذي أولى/يُولي اهتماما خاصاً للغة كظاهرة اجتماعية نفسية في المجتمعات.

ثانيا – سلطان اللغة الفرنسية بالمجتمع التونسي :

لاتزال اللغة الفرنسية صاحبة هيمنة واسعة في المجتمع التونسي بعد أكثرمن نصف قرن من الاستقلال ١٩٥٦. فاستعمال لغة المستعمر لاينفك عن منافسته للغة

العربية/الوطنية في هذا المجتمع حتى في أبسط التعبيرات عن الأشياء اليومية في حياة المواطن التونسي، كما سنرى هذا الوضع في القسمين الثاني والثالث من هذه الدراسة. وبالطبع فإن الفضول العلمي لدى الباحث إزاء هذه الظاهرة اللغوية لم يسمح له بإغفال النظرفيها قصد محاولة كسب رهان الفهم والتفسيرلها ولاستمرارها قوية عند الأجيال التونسية بعد زوال الاحتلال الفرنسي منذ أكثر من خمسة عقود.

ثالثا – العوامل النفسية والاجتماعية نحوالعربية :

لا تركز الدراسة على وضع اللغة العربية في المجتمع التونسي من حيث إتقان أو ضُعف المواطنات والمواطنين لنحو وصرف ومفردات وأسلوب التعبير في لغة الضاد، اللغة الوطنية الرسمية للمجتمع التونسي، بل يهتم البحث في المقام الأول **بكشف النقاب** عن العوامل النفسية والاجتماعية التي **عرقلت/تُعرقل** منذ رحيل المستعمر من البلاد التونسية **التطبيعَ الكامل لعلاقة التونسيين باللغة العربية**. وهومنظورنادر الحضور، حسب علم الباحث، في أدبيات دراسة وضع اللغة العربية المتردي في مجتمعات المغرب العربي على الخصوص بسبب آثارثقل الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي في الجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا. وسوف تتجلى معالم طرح عِلْمَيْ الاجتماع والنفس، في الجزئيْن الثاني والثالث من هذه الدراسة، في إبراز الجوانب النفسية والاجتماعية **للمشكل الذي تتعرض له اللغة العربية بين أهلها** الذين تمثل هذه اللغة عند أكثرمن ٩٩ في المئة من السكان الأصليين للمجتمع التونسي اللغة الوطنية الوحيدة.

رابعا – التنظير حول علاقة الهوية باللغة :

لايتوقف الشغفُ المعرفي للباحث عند كشف الغطاء عن الأسس النفسية والاجتماعية التي قادت/تقود إلى غياب التطبيع الشامل والكامل مع اللغة العربية في المجتمع التونسي **عموديا وأفقيا** : بين النخب وعامة الشعب. بل يتجاوز التشوق المعرفي لصاحب هذه الدراسة إلى الحفرفي أسس العلاقة بين الهوية واللغة عند

الإنسان. وهوتشوق معرفي يندرج في ما يُسمى بالبحث الأساسي Basic Research في ميادين العلوم الحديثة. أي أنه مسار بحثي يهدف إلى تعرف جوهروعمق طبيعة الأشياء وإلى العلاقات بينها. وهذا ما تسعى إلى تحقيق البعض منه على الأقل مغامرةُ الباحث التنظيرية حول العلاقة بين الهوية واللغة.

وهكذا، فالبحث يقتصرعلى دراسة قضيتيْن اثنتيْن: الوضع غيرالطبيعي/السليم للغة العربية/الوطنية في المجتمع التونسي قبل الثورة وبعدها ومسألة العلاقة بين الهوية واللغة التي تجعل البعض يقولون: إنّ اللغة بطاقة تعريف للناس في المجتمعات البشرية المختلفة. ومن ثمّ، يدرس هذا البحث علاقة اللغات بهوية الأفراد والمجتمعات والشعوب؛ نظرا لأن اللغة هي أحد العوامل الرئيسية المحددة للهوية الفردية والجماعية. تفيد البحوث أن اللغة والدين والعرق واللون هي أهم العوامل المؤثرة في تشكيل الهوية بمعنييها الفردي والجماعي (الذوادي 1997: 4 - 27. Porter 1967: 49). وهناك أكثر من تعريف لمفهوم الهوية. فبعض الباحثين يرى أن الهوية هي تلك السمات المعروفة للفرد أو الجماعة، أوهي كيف يرى الناس والمجتمعات الذات والآخر، أوهي عبارة عن مجموعة من القيم المشتركة والمعتقدات والمواقف/الاتجاهات والأدوار التي ترسم الحدود بين هوية من هو داخل الجماعة/المجتمع ومن هو خارجها/خارجه (رجب ٢٠١١: ٦ – ٧).

خامسا – منهجية البحث :

أما المنهجية التي يتبناها هذا البحث فتشمل **مستويين تنظيمي وفكري**: يدرس القسمان الثاني والثالث من البحث علاقة التونسيات والتونسيين باللغة العربية، لغتهم الوطنية ومدى ارتباط ذلك بالهوية العربية لديهم على المستويين الفردي والجماعي. وعلى المستوى الفكري/المعرفي، يستعمل القسم الأول رؤية العلوم الإنسانية والاجتماعية لإبراز **مركزية اللغة في هوية** الإنسان ككائن لغوي ناطق الأمرالذي يساعد تحليل مسألة علاقة اللغة بهوية الإنسان كإنسان وعلاقات هويات الجماعات والمجتمعات بلغاتها. وكجزء من المنهجية التنظيمية الفكرية

المطروحة هنا، يقدّم نصُّ هذا البحث **عمدا** كلمة التونسيات على كلمة التونسيين في تحليل وضع اللغة العربية بالمجتمع التونسي الحديث بسبب ما يلاحظ من **انجذاب أكبر** لدى الفتيات والنساء التونسيات نحواللغة الفرنسية واللغات الأجنبية بصفة عامة. يركزالقسم الثالث من دراسة الباحث على هذه الظاهرة ويُفصّل القول فيها.

القسم الأول
اللغة وهوية الإنسان في البحث الأساسي

اللغة رمز هوية الإنسان :

إن تركيز هذا البحث على العلاقة بين اللغة والهوية في المجتمع التونسي ينطلق من منظومة فكر إيبستيمولوجي/معرفي للباحث يقول إن اللغة المنطوقة والمكتوبة هي الميزة الأولى التي تحدد هوية الإنسان كإنسان بحيث يجوز تلخيص ذلك في العبارة: **أستعمل لغة** إذن فأنا إنسان. أي أن بني البشر يكسبون هويتهم الإنسانية بواسطة هبة اللغة في شكليْها المنطوق والمكتوب. وللتعمق أكثر في مركزية اللغة في هوية الإنسان دعنا ننظر إلى مكانة اللغة في منظومة ما يسميه صاحب البحث الرموز الثقافية المميزة أيضا لهوية الإنسان والمتمثلة في اللغة والمعرفة/ العلم والفكر والديانات والقوانين والقيم والأعراف الثقافية. إنها كلها سمات رئيسية مميزة للجنس البشري. فمفهوم **الرموز الثقافية** عنده هو مرادف إلى حد ما لكلمة الثقافة Culture التي تستعملها العلوم الاجتماعية المعا صرة. وسيتجلى الفرق بين الاثنين في السطور القادمة، وفي متن البحث بصفة عامة.

يعتبر المنظور الفكري لصاحب الدراسة أن اللغة هي أم بقية عناصر منظومة الرموز الثقافية جميعا. إذ عند التساؤل عن أهم عنصر في منظومة الرموز الثقافية يقف وراء ميلادها وتطورها ونضجها، فإن اللغة البشرية المنطوقة على الأقل تكون هي وحدها المؤهلة لبروز منظومة الرموز الثقافية / الثقافة كما وقع تعريفها سابقا. إذن، يصعب تخيل وجود بقية عناصر الرموز الثقافية كالدين والعلم والفكر،مثلا، بدون حضور اللغة البشرية في شكلها المنطوق على الأقل. ومن ثم، جاءت مشروعية تأكيد الباحث المتكرر في مقولة أبحاثه المتعددة في العلوم الاجتماعية والإنسانية أن **اللغة هي أم الرموز الثقافية جميعا** (الذوادي ٢٠٠٦: ٢٨). وهذا يعني أن اللغة معلم مركزي في هوية الإنسان ككائن فريد بين الكائنات الأخرى. فعلى مستوى

المقاربة النظرية، يمكن القول بأن اللغة في شكليْها المنطوق والمكتوب تحدد هوية الإنسان ككائن مختلف عن بقية المخلوقات الأخرى. يجوز اعتبار هذا التصور النظري للعلاقة بين هوية الإنسان وهبة اللغة بأنه المنظور الأم/الكبير (الماكرو) الذي يساعد على تشخيص تلك العلاقة في دراسة حالات محددة بعينها (المايكرو) مثل مسألة علاقة الهوية بانتشار لغة أجنبية كلغة تدريس وعمل وتواصل وو.. في البلاد التونسية، كما سنرى.

إن هذا الطرح الفكري المعرفي لجوهر الظاهرة اللغوية لدى الإنسان يسمى في اصطلاح العلم الحديث البحث الأساسي Basic Research، وهو البحث الذي ينصرف اهتمامه أولا وقبل كل شيء إلى إرساء رصيد معرفي/علمي متعمق حول الظواهر المدروسة (Simon 1967). وهو يختلف مع ما يُدعى بالبحث التطبيقي Applied Research. فهذا الأخير يهدف بالتحديد إلى تمكين الإنسان من استعمال المعرفة وليس بالضرورة إلى الدفع بها إلى الأمام. وبناء على هذا، فإن البحث التطبيقي يعتمد على المعطيات المعرفية للبحث الأساسي. فنمو الرصيد المعرفي حول الكون وظواهره المتنوعة مربوط، إذن، شديد الارتباط بحال البحث الأساسي في المراكز العلمية الموجودة بالمجتمع الصغير أو بمجتمع العالم الكبير. فعملية تقصي الحقائق بالنسبة لطبيعة اللغة ليس ضربا من الشطحات الفلسفية المجردة، وإنما هي مطلب جوهري يحتاج إليه بالتأكيد رصيد المعرفة البشرية الذي يهتم بفهم وتفسير السلوكات اللغوية الفردية والجماعية. فبدون البحث الأساسي المتعمق في لغز اللغة البشرية يصعب التفكير في تعزيز وتوسيع قدرة البشر على فهم أنماط سلوكاتهم اللغوية على المستوى الفردي والجماعي كما سنرى في قراءة تفصيلية لخريطة المسألة اللغوية في المجتمع التونسي الحديث.

موضوع اللغة في البحث الأساسي:

يحظى موضوعُ اللغة في البحث الأساسي باهتمام كبير بين الباحثين. فقد ذهب عالم النفس بنكر Pinker إلى القول بأن **اللغة هي غريزة في الإنسان**

مثلها مثل قدرة الإنسان الغريزية على المشي.أي أنها شيء متجذر ومبرمج في الطبيعة البشرية (Pinker 1995). وهذا ما يفسر نجاح كل الأطفال بكل سهولة على استعمال وحذق اللغات. فلو لم تكن المقدرة اللغوية أمرا غريزيا مبرمجا في عمق صميم الطبيعة البشرية لفشل عدد غير قليل من الأطفال في تعلم اللغة كما يفشلون في تعلم القراءة، مثلا. وبعبارة أخرى، فالقدرة على استعمال اللغة مسألة ديمقراطية متاحة لكل الناس في الظروف العادية ولا يحرم منها إلا نزر قليل من الناس لأسباب خلقية أو لأسباب عارضة في حياتهم. إن حرمان هؤلاء من استعمال اللغة لا يؤدي بالضرورة إلى عجزهم على امتلاك،بدرجات مختلفة، بقية عناصر المنظومة الثقافية كالتفكير وممارسة العلم والمعرفة والتدين والتأثر بقيم وتقاليد المجتمع. تمثل ملكة اللغة، هذه الغريزة البشرية، مخزونا مركزيا وأساسيا في طبيعة الإنسان. ولهذا المخزون **وجهان**: ١ – استعمال اللغة المنطوقة والمكتوبة و٢ – الاستعداد والقدرة على استعمال بقية مكونات منظومة الرموز الثقافية. إن حضور الوجهين للملكة اللغوية هو بالطبع الوضع المثالي لتمكين أفراد الجنس البشري من كامل تمتعهم بما هو موجود في هذا العالم، ومن ثم التأهل الكامل للعب دور السيادة فيه.

يرى العالمان نوبل W.Nobleود يفدسن I.Davidson أن اللغة هي أداة التفكير الرمزي عند الإنسان. فهي التي تمكنه من صياغة المفاهيم والأفكار ونشرها بين الآخرين. ففي نظرهما وقع **الانفجار الثقافي الكبير** The Big Cultural Bang في دنيا الإنسان **بواسطة اللغة**. فبها استطاع بنو البشر أن يبتكروا الفنون والتقنيات الجديدة للتعامل مع محيطهم (Davidson, Noble 1989). وهكذا تتجلى مركزية اللغة بوجهيها في تشكيل هوية الإنسان، هذا الكائن الفريد على أديم هذه الأرض. ومن هنا، تأتي مشروعية القول بأن اللغة هي المصدر الذي لا ينضب في قدرته على مد الكائن البشري وحده **بتاج صفة الإنسانية** على مر العصور.

وتأتي مقولة عالم اللسانيات الأمريكي المشهور نوام شومسكي Noam Chomsky بخصوص تعلم الطفل للغة لتعزز مبدأ الرجوع إلى **الأساسيات** Basics

كإطار منهجي لعدد متزايد للعلماء والباحثين المحدثين (Chomsky,1975). فدراسات شومسكي وأتباعه لظاهرة تعلم الطفل للغة واستعماله لها أدت بهم إلى تسجيل ملاحظتين رئيسيتين في هذا المضمار:

(١) يتعلم الأطفال مفردات وقواعد اللغة الأساسية مع بلوغهم سن الرابعة بسرعة تفوق سرعة تعلمهم لما سماه شومسكي وأتباعه للمهارات الذهنية والفكرية الأخرى other intellectual abilities، ومن ثم جاء تأكيدهم على أن البشر يولدون بمقدرات واستعدادات **فطرية** ضخمة لتعلم اللغة.

(٢) لاحظ شومسكي وموالوه أن قواعد اللغة تسمح للطفل بأن يستعمل، بطرق تكاد تكون غير محدودة، أنواعا مختلفة من التركيبات الكلامية والجمل التي لم يسمعها أبدا من قبل . فتعامل الطفل مع اللغة يتصف، إذن، بملامح الابتكار creative aspects، وهو تحليل يضع علماء النفس السلوكيين the Behaviorists أمام صعوبات جمة إزاء تفسير ظاهرة التجديد في استعمال اللغة عند الطفل وفقا لأدوات السلوكيين في تفسير السلوك والمتمثلة في الاستجابة المباشرة وعملية التعزير (التدعيم) reinforcement والدراية الارتجاعية feedback من المحيط الخارجي.

إن ما جاء في (١) و(٢) يشير إلى أن الأطفال يولدون في هذا العالم وهم **يحملون استعدادات لغوية** فطرية تتحدى مؤثرات البيئة. ففي حديثهم لا يقلدون حرفيا دائما نمط تركيبة الكلام الذي يسمعونه، بل هم يبادرون إلى صياغة جمل ونظام كلامهم بطريقتهم الخاصة. أي أن حديثهم ليس من حيث تركيبته اللغوية اجترارا روتينيا لكلام سمعوه في الأسرة والحي والمجتمع ككل. وبعبارة أخرى، فإن شومسكي وأصحابه يطرحون مفهوم ما يمكن أن نطلق عليه **بالطبيعة البشرية اللغوية** التي يفوق تأثيرها ويتحدى في اللغة أحيانا تأثير البيئة على الطفل.

كان يمكن الإطناب في الأمثلة السابقة للتدليل على أن سلوك الإنسان يتأثر في العمق بمؤثرات خلقية فطرية. هذه المؤثرات تكون في نهاية الأمر صلب الطبيعة

البشرية. فهذه الأخيرة هي مجموعة من الاستعدادات والمقدرات الثابتة التي تتميز بها طبيعة الإنسان، بغض النظر عن محيطه الاجتماعي والثقافي، إنها تلك الثوابت التي يشترك فيها بنو البشر بصرف النظر عن لون بشرتهم ومكان إقامتهم على خريطة الكرة الأرضية.

غياب اللغة في أشهر تعريف للثقافة :

ونظرا لمركزية ملكة اللغة في نشأة منظومة الرموز الثقاقية/الثقافة، حسب منظور التحليل في هذا البحث، فإن وصف القدماء للإنسان بأنه **حيوان ناطق** وصف مشروع جدا؛ لأن اللغة المنطوقة والمكتوبة هما أكثر ما يميز الجنس البشري عن بقية الأجناس الأخرى، ويعطيه السيادة عليها بواسطة منظومة الرموز الثقافية. إنهما بكل المقاييس مصدر تأهل بني البشر وحدهم بكل مشروعية إلى كسب رهان صفة الإنسانية، ومن ثم السيادة في هذا العالم.

ورغم مركزية ملكة اللغة في هوية الإنسان ومن ثمّ في بروز منظومة الثقافة في المجتمعات البشرية، كما وقعت الإشارة، فإن أشهر تعريف لمفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة لايذكر اللغة كعنصر مركزي وأساسي في صلب منظومة الثقافة باعتبارها العنصر الرئيسي المنشئ والمؤسس لظاهرة الثقافة البشرية، و هي بالتالي جزء منها في نفس الوقت. وهذا مالا نجده في أشهر تعريف أنثروبولوجي لمنظومة الثقافة. فقد عرف عالم الأنثروبولوجيا البريطاني إدوارد برنارد تايلور (1871 الثقافة Culture) بأنها ذلك الكل المعقد الذي يتضمن المعرفة والعقيد ة والفن والأخلاق والتقليد وأي مقدرات وعادات يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع (Sills, Merton 1991:240) .

يتمثل قصور هذا التعريف الكلاسيكي للثقافة في كونه لا يشير إلى اللغة ولا يعطيها الصدارة في مكونات منظومة الثقافة، والحال أن اللغة هي **منشئة** ظاهرة الثقافة نفسها بمعناه البشري الواسع والشديد التعقيد، كما ذُكر سابقا. أي أن هناك علاقة عضوية جدا بين اللغة ومنظومة ثقافتها عند بني البشر. وبناء على هذا،

يجوز الحديث بمشروعية عن قصور تعريف تايلور لمفهوم الثقافة بسبب أنه لا يذكر صدارة ومركزية اللغة في تعريفه لظاهرة الثقافة البشرية، ذلك الكل المعقد، كما جاء في مضمون تعريفه السابق الذكر. وهذا معلم آخر للفرق بين مفهوم الرموز الثقافية ومصطلح الثقافة عند تايلور.

الإنسان كائن لغوي ثقافي بالطبع :

يتبين مما سبق أن اللغة والرموز الثقافية **هما بيت القصيد في هوية الإنسان**. فهذا الأخير يكسب صفة الإنسانية بسبب استعماله لهبة اللغة البشرية ورموز منظومتها الثقافية. وبهذا التميز اللغوي الرموزي الثقافي جاءت مشروعية هيمنة الإنسان على بقية الكائنات الحية والجامدة على حد سواء. أي أن تلك الهيمنة تأتي من الجانب غير المادي (اللغة والرموز الثقافية) في هويته المزدوجة (الرموز الثقافية +الجسد) كما سيأتي شرحه. وكما رأينا، فإن ملكة اللغة هي مصدر تميز الجنس البشري عن سواه بمنظومة الرموز الثقافية. **فالإنسان**، إذن، **ليس حيوانا ناطقا فحسب** كما قال قدماء الفلاسفة بل هو أيضا كائن رموزي ثقافي بالطبع. وبعبارة أخرى، فتميز الكائن البشري عن سواه من الكائنات الأخرى بالقدرة على استعمال مهارة اللغة في شكليْها المنطوق والمكتوب على الخصوص أهله بطريقة مشروعة لكي يكون وحده **مخلوقا لغويا رموزيا ثقافيا بالطبع**. وبمصطلح العلوم الاجتماعية الحديثة، يسهل القول إن علاقة الارتباط correlation قوية جدا بين ملكة اللغة عند بني البشر، من جهة، وحضور ظاهرة الثقافة، ذلك الكل المعقد في المجتمعات الإنسانية، من جهة ثانية.

منظور جديد للطبيعة اللغوية الثقافية للإنسان:

ولتعزيز فكرة مركزية اللغة والرموز الثقافية في هوية الإنسان كما هي واردة أعلاه يتبنى الباحثُ منظورا منهجيا مستحدث الصنعة لبلوغ ذلك، ويتمثل في طرح السؤال التالي: هل **الإنسان كائن لغوي ثقافي بالطبع** ؟

إن الإجابة الشافية على ذلك قد تحتاج إلى آلاف الكلمات في مقال أو دراسة أو كتاب أو حتى إلى عديد المجلدات. ويمكن للمرء أن يتبنى، مثلا، منظور الفلسفة أو العلوم الاجتماعية أوهما معا لكي يكتب أطروحة متماسكة في هذا الموضوع. فنحن نعرف كم سال حبر أقلام الفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين على الخصوص من كل الحضارات وفي كل العصور حول مقولة مشابهة ينادي شعارها: أن الإنسان مدني/اجتماعي بالطبع.

ومن جهة نظر الباحث، فإنه من الضروري الإطناب في النقاش والجدال في جوهر الحجج المؤكدة للطبيعة اللغوية الثقافية للإنسان. فالمسألة يمكن حسمها في سطور وفقرات محدودة. وكما يقال: فخير الكلام ما قل ودل أو البلاغة الإيجاز. وهذا ما يرغب الباحثُ في القيام به باقتصاد شديد في عدد الحروف والكلمات، من ناحية، وبساطة كبيرة في التعبير وربما في الإقناع في قضية تبدو معقدة للغاية، من ناحية أخرى. وللوصول إلى هذا الهدف يعتمد صاحبُ الدراسة في هذا المنظور الجديد على الجمع بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية؛ إذ يصعب التعمق في فهم طبيعة الإنسان مع غياب أي من هذين الصنفين من العلوم، فلا يجوز علميا تحليل ذات الإنسان وعمق كينونته بدون الحديث عن العوامل البيولوجية والفيزيولوجية/الجسمية عند الإنسان. كما لا تقبل محاولة فهمه بتهميش أو الترك جانبا أهم ما يميز الجنس البشري بطريقة فاصلة وحاسمة عن بقية الأجناس الحية الأخرى، وهي المنظومة اللغوية الثقافية أوما يسميه الباحثُ في هذه الدراسة الرموز الثقافية: اللغة والفكر والدين والمعرفة/العلم والأسطورة والقوانين والقيم والأعراف الثقافية. وكما أشار الباحثُ من قبل فإنه يمكن صياغة فكرة هذا الجزء من البحث بشيء من التصرف في تعبير الفيلسوف الفرنسي الشهير ديكارت القائل «أفكر، إذن، فأنا موجود» ليصبح في مقولة طرحه الفكري في هذه الدراسة «**أستعمل لغة ورموزا ثقافية، إذن، فأنا إنسان**».

وللإجابة على السؤال المطروح قبل قليل يجيب الباحثُ بنعم قوية: إن الإنسان هو فعلا كائن لغوي ثقافي بالطبع قبل أن يكون اجتماعيا بالطبع. يستند هذا القول على ملاحظات رئيسية توصل إليها صاحب الدراسة حول **خمسة معالم** ينفرد بها

الجنس البشري عن غيره من الأجناس الحية الأخرى. إنها ملاحظات دقيقة تؤكد في نهاية المطاف مركزية اللغة والرموز الثقافية في هوية الإنسان. وحسب علم الباحث، فهي **ملاحظات جديدة** لا يعرف إذا كان قد اهتدى إليها كلها أو إلى البعض منها علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع المعاصرون في دراساتهم للثقافة/الرموز الثقافية. ومن ثم، فهي ملاحظات مستحدثة الصنعة، غريبة النزعة، كما وصف ابن خلدون ابتكاره لعلمه الجديد: علم العمران البشري في مقدمته المشار إليها بالبنان. يوجزصاحبُ الدراسة هذه الملاحظات والتعليقات عليها في ما يأتي:

١ – يتصف النمو الجسمي (البيولوجي – الفيزيولوجي) لأفراد الجنس البشري **ببطء شديد** مقارنة بسرعة النمو الجسدي الذي نجده عند بقية الكائنات. ويصلح هذا لتفسير،مثلا، ظاهرة عجز الأطفال عن المشي المبكر أو البلوغ الجنسي المبكر أيضا كما هو الأمر عند صغار الحيوانات. فمعروف أن معدل سن الأطفال للقدرة على المشي هو عام بعد ميلادهم بينما يمشي صغار الحيوانات مباشرة بعد الميلاد أو بعد ساعات أو بعض الأيام فقط.

٢ – يتمتع أفراد الجنس البشري عموما بأمد حياة (سن) **أطول** من عمر معظم الحيوانات.

٣ – ينفرد الجنس البشري بلعب دور السيادة في هذا العالم بدون منافسة حقيقية له من طرف باقي الأجناس الأخرى على وجه الأرض.

٤ – وكما سبق ذ كره مرارا في الصفحات السابقة فإن الجنس البشري يتميز بطريقة فاصلة وحاسمة عن الأجناس الأخرى بمنظومة ما أطلق عليه الباحثُ مصطلح **الرموز الثقافية** السابق الذكر.

٥ – يختص أفراد الجنس البشري **بهوية مزدوجة** تتكوّن من الجانب الجسدي، من ناحية، والجانب اللغوي الرموزي الثقافي (المشار إليه أعلاه في٤)، من ناحية ثانية. يسمح هذا التصور الجديد لتغيير التصور التقليدي لهوية الإنسان والمنادي بأن الإنسان جسد وروح لتصبح هوية الإنسان في الرؤية المستحدثة

لصاحب الدراسة **جسدا ولغة ورموزا ثقافية**. فيضفي ذلك شفافية أكبر على القرب أكثر من فهم وتفسير السلوكات البشرية الفردية والجماعية المتأثرة في العمق بمنظومة اللغة والرموز الثقافية ذات الصدارة المركزية في هوية الإنسان، كما يؤكد هذا البحث على ذلك.

والتساؤل المعرفي المشروع الآن من أجل تأكيد مركزية منظومة اللغة والثقافة في هوية الإنسان هو: هل توجد علاقة بين تلك المعالم الخمسة التي يتميّز بها الإنسان ؟

أولا- هناك علاقة مباشرة بين المعلمين ١ و٢. إذ إن النمو الجسمي البطيء عند أفراد الجنس البشري يؤدي بالضرورة إلى حاجتهم إلى معدل سن أطول يمكنهم من تحقيق مراحل النمو والنضج المختلفة والمتعددة المستويات. فالعلاقة بين الاثنين هي،إذن، من نوع العلاقة السببية.

ثانيا- أما الهوية المزدوجة التي يتصف بها الإنسان فإنها أيضا ذات علاقة مباشرة بالعنصر الجسدي (المعلم ١) للإنسان، من جهة، والعنصر اللغوي الرموزي الثقافي (المعلم ٤)، من جهة أخرى.

ثالثا- عند البحث عن علاقة سيادة الجنس البشري بالمعالم الأربعة الأخرى، فإن المعلمين ١ و٢ لا يؤهلانه، على مستوى القوة المادية، لكسب رهان السيادة على بقية الأجناس الحية الأخرى، إذ الإنسان أضعف جسديا من العديد من الكائنات الأخرى. ومن ثم، يمكن الاستنتاج بأن سيادة الجنس البشري ذات علاقة قوية ومباشرة بالمعلمين ٥ و٤: الهوية المزدوجة ومنظومة اللغة والرموز الثقافية. والعنصر المشترك بين هذين المعلمين هو **منظومة اللغة والرموز الثقافية**. وهكذا يتجلى الدور المركزي والحاسم لمنظومة اللغة والرموز الثقافية في تمكين الإنسان وحده من السيادة في هذا العالم. أي أن الجانب غير المادي من الإنسان (اللغة والرموز الثقافية) **هو الذي يؤهله للسيادة وحده** في هذا العالم على بقية الكائنات الأخرى الفاقدة لذلك النوع من المنظومة اللغوية والرموزية الثقافية التي يتميز بها الإنسان.

وبهذا الصدد فالباحثُ لا يقول بالطريقة التقليدية التي ترى أن اللغة والرموز الثقافية غير مادية بمعنى أنها عناصر روحية. بل يقدم تصورا جديدا ملموسا يفسر خلوها من المعالم المادية. فعناصر اللغة والرموز الثقافية كاللغة والفكر والدين **لا وزن لها ولا حجم** بالمعنى المادي للأشياء المادية التي لابد أن يكون لها وزن وحجم مهما كانا صغيرين وضئيلين. وهذا يعني في نهاية المطاف أن الجانب غير المادي/اللغة والرموز الثقافية هو بيت القصيد في كينونة هوية الإنسان. وهو ما تُلحّ على أهميته الكبرى عبر العصور معظمُ المدارس الفلسفية البشرية والديانات، وفي طليعتها الدين الإسلامي. وفقدان عالم اللغة و الرموز الثقافية لعامليْ الحجم والوزن يساعد أيضا على تفسير سرعة التواصل المدهش اليوم بالكلمة المكتوبة والمنطوقة والصورة مع ثورة الاتصالات عن طريق الفاكس والإنترنت والهاتف، وغيرها من وسائل التواصل الحديثة. فالتواصل بتلك الوسائل **يُلغي كليا عاملي الوزن والحجم من الأشياء المرسلة** سواء كانت مكتوبة أو منطوقة. يفسر غياب هذين العاملين أيضا إمكانية وضع محتوى عدد هائل من عشرات ومئات آلاف صفحات المجلات والكتب والمجلدات في عدد قليل من الحاويات الإلكترونية الصغيرة جدا Flash Disks.

رابعا– إن منظومة اللغة والرموز الثقافية تسمح أيضا بتفسير المعلمين ١ و ٢. وهو أمر يبدو **عجيبا وغريبا جدا** لا لمحكمي هذا البحث فقط بل لعامة الناس وخاصتهم على حد سواء. وأمل صاحب الدراسة أن يزول العجب والغرابة بعد فهم التفسير لهذا الأمر. وكما يقال: «إذا عُرف السبب بطل العجب».

فالنمو الجسمي البطيء عند الإنسان يمكن إرجاعه إلى كون عملية النمو عنده تشمل **جبهتين**: الجبهة الجسمية والجبهة اللغوية الرموزية الثقافية. وهذا خلافا للنمو الجسدي السريع عند الحيوانات بسبب فقدانها لمنظومة اللغة البشرية والرموز الثقافية بمعناها الإنساني الواسع والمعقد. والملاحظ بهذا الصدد أن الأطباء وعلماء

البيولوجيا لا يكادون يأخذون بعين الاعتبار جبهة اللغة والرموز الثقافية في دراستهم للإنسان هذا الكائن اللغوي الرموزي الثقافي بالطبع. ومع ذلك، فهم طالما يدعون أنهم ينتمون إلى العلوم الصحيحة. وكيف تكون هذه العلوم حقا صحيحة، وهي تهمش دراسة وفهم مركزكينونة هوية الإنسان: منظومة اللغة والرموز الثقافية!؟

فمن الأمثلة المذكورة حول مركزية اللغة والرموز الثقافية في هوية الإنسان، يجوز ابتكار مفهوم جديد يسميه الباحثُ **تثقيف البيولوجيا** Culturobiology الذي يعني أن منظومة اللغة والرموز الثقافية تؤثر على بيولوجيا الإنسان كما رأينا في أمر تأخر مشي الأطفال مقارنة بالمشي الفوري لدى صغار الحيوانات، أو في بطء نمو جسم الإنسان، من ناحية، وسرعة نمو أجساد الحيوانات، من ناحية أخرى.

يتضح من المعطيات السابقة أن شرح الميزات الخمس للإنسان ومناقشتها يفيد أن منظومة اللغة والرموز الثقافية الخاصة لدى الإنسان تمثل **العمود الفقري لهويته** ككائن فريد، وصاحب سيادة على بقية الكائنات في هذا العالم، من جهة، وككائن يتأثر عالمه البيولوجي والفيزيولوجي بمنظومة اللغة والرموز الثقافية، من جهة ثانية. فمثل هذا الطرح لعلاقة اللغة والرموز الثقافية بهوية الإنسان، محور هذا البحث، مؤهل لكسب رهان مشروعية النجاح في **إضافة فكرية مبتكرة** على **صعيدين**: النظر إلى الإنسان باعتباره كائنا لغويا رموزيا ثقافيا، وباعتبارأن طينته البيولوجية الفيزيولوجية تتأثر بمنظومته اللغوية الرموزية الثقافية. وبعبارة أخرى، فمنظومة اللغة والرموز الثقافية هي بيت القصيد في تشكيل صلب جوهرهوية الإنسان.

خامسا– يلخص الرسم التالي مركزية اللغة والرموز الثقافية في عمق هوية الإنسان، فيعطي بذلك مشروعية قوية لفكرة الباحث القائلة في صفحات هذا البحث بأن **الإنسان كائن لغوي رموزي ثقافي** بالطبع.وتنسجم هذه الرؤية مع مقولة مدرسة **التفاعل الرمزي** Symbolic Interaction .

.(Manis &Meltzer 1968)

الرسم ١

-٥- الإنسان مزدوج الطبيعة -٣- سيادة الإنسان في العالم

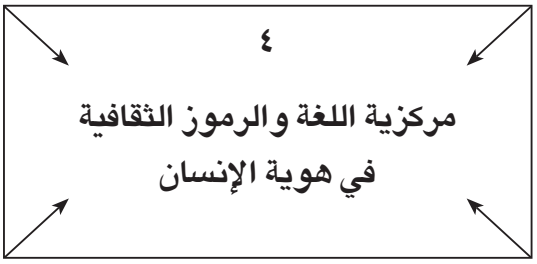

-١- جسم الإنسان بطيء النمو -٢- طول عمر الإنسان

غياب الشجرة وحضور فروعها في العلوم الاجتماعية :

يتضح من مقولة الباحث (الإنسان كائن لغوي ثقافي بالطبع) المطروحة في الصفحات السابقة أنها تنتمي إلى ما يسمى عند علماء الاجتماع الثقافيين cultural sociologists «**البرنامج القوي** strong program» لا «**البرنامج الضعيف** weak program» في بحوثهم الميدانية (الإمبيريقية) وأطروحتهم النظرية. وبعبارة أخرى، فمنظومة اللغة والرموز الثقافية كان يجب أن تكون مركزية في أعمالهم الفكرية والميدانية في العلوم الاجتماعية. بذلك يكونون أصحاب « البرنامج القوي» كما يصطلح عليه روادُ علم الاجتماع الثقافي اليوم في المجتمع الأمريكي على الخصوص. وهذا ما لم يكن موجودا، باعتراف الباحثين الغربيين أنفسهم، في علم الاجتماع الغربي منذ بداياته الأولى. ومن ثمّ، يوصف الرواد المؤسسون لعلم الاجتماع الغربي بأنهم أصحاب «البرنامج الضعيف» كما تطلق على ذلك اليوم المدرسة الأمريكية لعلم الاجتماع الثقافي.

فعلماء الاجتماع الغربيون الأوائل المنظرون حول الثقافة مثل فيبر Weber ودوركهايم Durkheim وماركس Marx وبارسنز Parsons وميلس Mills

والشيوعيين والفاشيين وآخرين عُرفوا بأنهم كانوا أصحاب «برنامج ضعيف» بالنسبة لأهمية الثقافة في أعمالهم المنشورة. لقد أعطوا الثقافة/الرموز الثقافية أهمية صغيرة في تحاليلهم السوسيولوجية (Semashko, Daloz, Erdemir 831- 838 : 2006). كما أن المدرسة الفكرية Birmingham School وعالم الاجتماع بورديو Bourdieu والفيلسوف فوكو Foucault ونظرية إنتاج واستهلاك الثقافة لم يقوموا بأفضل من روّاد علماء الاجتماع الغربيين: أي أنهم تبنوا كذلك «البرنامج الضعيف» في دراسة الثقافة. ولا يزال **اتجاه «البرنامج الضعيف» هو المهيمن اليوم في الدراسات السوسيولوجية للثقافة** رغم أن اتجاه «البرنامج القوي» لعلم الاجتماع الثقافي يلقى اهتماما متزايدا بين علماء الاجتماع منذ ميلاد ما يسمى «التحوّل الثقافي Cultural Turn» في أواخر التسعينيات من القرن الماضي (503: Wolff 1999). وهناك إجماع واسع بأن عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي كليفرد جيرتس Clifford Geertz هو الذي انطلق على يديه «البرنامج القوي» لدراسة الثقافة. توجد مسلمتان لهذا البرنامج تتمثلان في: ١- استقلالية الثقافية و ٢- الثقافة كنص للحياة الاجتماعية. وبعبارة أخرى، فالثقافة هي النص الداخلي (الخفي) للحياة الاجتماعية. ومع الأ سف فهذا مالا نجده في المدارس الفكرية و النظريات الحديثة في العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة. فالماركسية والبنيوية الوظيفية والتحليل النفسي والتفاعلية الرمزية Symbolic Interactionism والمدرسة السلوكية Behaviorism كلها ذات أطروحات معرفية/ إيبستيمولوجية ورؤى فكرية **لا تجعل** منظومة اللغة والرموز الثقافية أمرا مركزيا في صلب هوية الجنس البشري، كما تبرز ذلك مقولة هذا البحث. وحتى علم الإنثروبولجيا المعاصرالذي يركزعلى دراسة الثقافة في المجتمعات البشرية، فإنه لا ينظر إلى الإنسان على أنه كائن لغوي رموزي ثقافي بالطبع، كما تؤكد مقولةُ صاحب الدراسة هنا وفي كتابات أخرى (الذوادي 1997، 2002، 2008، 2002 Dhaouadi). ومن ثم، غاب مصطلح **الإنسان اللغوي الثقافي** Homo Linguistico-Culturus في أدبيات العلوم الاجتماعية المعاصرة. وفي مقابل ذلك، ذهب علماء الاقتصاد وأصحاب الرؤية المادية للإنسان

إلى وصف طبيعة هذا الأخير بأنه كائن اقتصادي (Homo Oeconomicus). أما علماء السياسة والمهتمون بدراسة ميل البشر إلى الانشغال بأمور السياسة فقد أطلقوا عليه مصطلح كائن سياسي (Homo Politicus). والإنسان عند علماء الاجتماع هو كائن اجتماعي (Homo Sociologus)). و(Dahrendorf 1974) وكما وقعت الإشارة من قبل، فرغم تركيز علماء الأنثروبولوجيا المعاصرة على دراسة الثقافة لدى الإنسان والمجتمع، فإنهم لم يستعملوا مثل زملائهم مصطلحا مشتقا من كلمة الثقافة ليصفوا الإنسان على أنه كائن ثقافي (Homo Culturus) في المقام الأول. إن هذا التهميش لأهمية منظومة اللغة والرموز الثقافية ودورها المركزي والحاسم في المساعدة على الفهم والتفسير للظواهر في دنيا البشر **هو تهميش يضر بمصداقية فكر العلوم الاجتماعية**. إذ كيف ينتظر – والحال على ما هي عليه – أن يكون فهم وتفسير تلك العلوم للظواهر السلوكية البشرية متماسكين على المستويين النظري والميداني؟ يمثل ذلك التهميش فقدانا كبيرا لدى الباحثين والعلماء في العلوم الاجتماعية للقيام بجدية بالبحث الأساسي Basic Research الذي يمس في هاته الحالة منظومة اللغة والرموز الثقافية التي تحتل مركزية هوية الإنسان والمجتمع، كما وقع بيان ذلك. وبغياب البحث الأساسي أو تهميشه في دراسة الإنسان ككائن لغوي ثقافي بالطبع، فإنه **يصعب الاطمئنان** على مصداقية الرؤى المعرفية / العلمية والنتائج الميدانية التي تتوصل إليها العلوم الاجتماعية الحديثة. إذ هي علوم لم تعتن أكثر **بالأهم** (منظومة اللغة والرموز الثقافية) في كينونة هوية الإنسان بل هي أعطت جل اهتمامها إلى جوانب أقل مركزية في هوية الإنسان، مثل الإنسان اقتصادي وسياسي واجتماعي... إذ يحتل البعض منها مجرد بُعد هامشي في هوية الكائن البشري. وما كان لذلك البعد أن يوجد أصلا دون حضور اللغة والرموز الثقافية في صلب هوية الإنسان. وبعبارة أخرى، يجوز وصف فكر تلك العلوم بأنه فكر أعطى أولوية اهتمامه إلى ما يقترب من المهم بدلا عن إعطائه بالكامل إلى **الجانب الأهم** في هوية الإنسان ومجتمعه، وهي منظومة اللغة والرموز الثقافية (الذوادي ٢٠٠٦: ٢٨). وهكذا يجوز القول بأن **غفلة رواد العلوم**

الاجتماعية الحديثة عن إعطاء الصدارة لمنظومة اللغة والرموز الثقافية في هوية الإنسان يشبه عملية **تغييب الشجرة** والاقتصار عن إحضار فروعها فقط. إذ إن وصف الإنسان بأنه اجتماعي واقتصادي وسياسي أو رقمي (Compiègne 2011) l'Homo Numericus كما ظهر أخيرا، لا يمكن رؤيته وتجسمه كحقيقة ميدانية بدون حضورمنظومة اللغة والرموز الثقافية في صلب هوية الإنسان (الحاج 1967 26، 121 : Compiégne 2008). وهذا مايفسرغياب وصف العلماء والباحثين في العلوم الاجتماعية للحيوانات بتلك الصفات البشرية الفرعية (اقتصادي وسياسي و اجتماعي) التي تستمد أصولها من شجرة منظومة اللغة والرموز الثقافية التي يتميز بها الجنس البشري.

ندرة بحث الموضوع في الأدبيات العربية والغربية :

واعتمادا على فقدان النظر إلى الإنسان على أنه كائن لغوي ثقافي بالطبع في العلوم الاجتماعية الغربية، كما رأينا، فإنه لا ينتظر من هذه العلوم أن يكون لها رؤية معرفية/إيبستيمولوجية/فكرية تعطي أولوية لعلاقة الارتباط correlation القوية بين اللغة وهوية الإنسان. أي أنه لايجوز الحديث عن هوية الإنسان دون حضور اللغة في شكلها المنطوق على الأقل. فهذا الغياب العام/المكرو macro للغة كمحدد متميز لهوية الإنسان يضعف من احتمال ربط اللغة بالهوية لدى تلك العلوم في المجالات المحدودة/الميكرو micro كما هو الحال في هذا البحث الذي يدرس علاقة تأثير استعمال اللغة الفرنسية على الهوية العربية للشعب التونسي.

ومن ثم، فلا تكاد توجد أدبيات غربية حديثة في العلوم الاجتماعية تعتني بدراسة موضوع علاقة اللغات **بالهويات** لدى الشعوب، ناهيك عن وجود دراسات عن الهويات وتأثير اللغات الأجنبية فيها. وكما وقع ذكره، فإن رؤية تلك العلوم لا تجعل من الناحية الإيبستيمولوجية من اللغة أهم عنصر في تشكيل هوية الإنسان ككائن فريد كما يؤكد على ذلك منظور هذا البحث. ومن هنا، لا يُنتظر فكريا ومنهجيا من

العاملين في هذه العلوم الاجتماعية أن يولوا اهتماما يذكر لدراسة العلاقة بين اللغة/ اللغات وهوية الناس والمجتمعات. فعلى سبيل المثال، فإن بعض الكتب والمراجع القيمة المهتمة بدراسة الازدواجيات اللغوية في المجتمعات المعاصرة لا تتحدث عن قضية الارتباط بين اللغات والهويات، بينما تمدنا بتفاصيل كثيرة ذات علاقة بالازدواجيات اللغوية. فكتاب جروسجان يركز كل اهتمامه على دراسة (الحياة بلغتين كمقدمة للازدواجية اللغوية) كعنوان لكتابه (Grosjean 1982). يتعرض المؤلف إلى مسائل عديدة مرتبطة بالازدواجيات اللغوية مثل تأثير هذه الأخيرة على الأطفال وعلى المزج اللغوي وأخطار الازدواجيات اللغوية على اللغات الوطنية. لكن فصول الكتاب تخلو من ذكر ومناقشة علاقات الهويات باللغات في المجتمعات التي درسها صاحب الكتاب. ويتبنى بهذا الصدد نفس الموقف مرجعان آخران نُشرا حديثا في عامي ٢٠٠٨ و٢٠٠٩. فالمشرفون على إصدار هذين العملين الفكريين والأكاديميين المهمين حول الازدواجيات اللغوية لا يخصصون أيا من الفصول العديدة للحديث ودراسة ظاهرة العلاقة بين اللغات والهويات في المجتمعات البشرية الحديثة (Kroll & Groot 2009 , Coulmas 2008). إذن، فإنه ليس من المبالغة القول بأن **تلك الأدبيات فقيرة** عموما في القديم والحديث في دراسة موضوع هذا البحث: علاقة اللغة بالهوية. وكما أكد صاحب هذه الدراسة من قبل، بأن هذا الأمر يعود في جانب منه، على الأقل، إلى **الإطار الفكري الإيبستيمولوجي** الكبير للعلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة التي لا تنظر في المقام الأول إلى هوية الإنسان على أنها هوية لغوية ثقافية، بل هي طالما تنظر إلى هويته على أنها اقتصادية أو سياسة أو اجتماعية أو رقمية كما رأينا سابقا.

أما بالنسبة لدراسة العلاقة بين اللغة والهوية في أدبيات العلوم الإنسانية والاجتماعية العربية، فالوضع ليس أفضل مما رأيناه في الأدبيات الغربية. فعلى سبيل المثال،إن عالم الاجتماع المصري الشهير علي عبد الواحد وافي الذي ألف

أكثر من كتاب حول اللغة لا يتطرق إلى موضوع اللغة والهوية (وافي ١٩٠١، ١٩٤٦) كما أن اللساني المغربي المعروف عبد القادر الفاسي الفهري لا يكاد يذكر شيئا عن العلاقة بين اللغة العربية والهوية العربية في المغرب (الفهري ٢٠٠٥ :٦١ – ٦٢). من ناحية أخرى، تفيد منشورات مركز دراسات الوحدة العربية أن هناك غيابا شبه كامل لطرح مسألة العلاقة بين اللغة العربية والهوية العربية (اللغة العربية والوعي القومي ١٩٨٤، اللغة العربية: أسئلة التطورالذاتي والمستقبل ٢٠٠٥ وفهرس مجلة المستقبل العربي ٢٠٠٣). ومن ثم، فهناك مشروعية كبيرة وملحة **لردم هذه الفجوة المعرفية** بما سينتج عن الحفر العلمي في هذا البحث في قضية العلاقة بين تأثير الحضور القوي للغة الفرنسية في المجتمع التونسي المعاصر وبين انتسابه إلى الهوية العربية.

القسم الثاني
اللغات وقضية الهوية في المجتمع التونسي وغيره

أضواء فكرية على علاقة الهويات باللغات :

وكما رأينا، ترتكز هذه الدراسة على ملاحظات وأسس فكرية نظرية حول علاقة اللغة بمسألة الهوية لدى الإنسان كإنسان. ولمحاولة القرب من التطبيق الميداني للإطار النظري المطروح في القسم السابق يود الباحثُ ذكرَ بعض الملاحظات حول علاقة اللغات بهويات الأفراد والمجتمعات، والتي يمكن إيجازها فيما يأتي:

١ – تعتبر اللغات المختلفة للأفراد والجماعات والمجتمعات والشعوب محددا بارزا للهويات الفردية والجماعية المتنوعة التي تعرفها القارات الخمس.

٢ – يتجلى بامتياز **ثقل عامل اللغات في تحديد الهويات** في تلك الشعوب والمجتمعات التي توجد فيها أكثر من لغة. فعلى سبيل المثال، توجد لغتان رسميتان في المجتمع الكندي، وهما اللغتان الإنجليزية والفرنسية. كما توجد لغتان رئيسيتان في المجتمع البلجيكي، وهما الفلندرية والفرنسية. أما في المجتمع العراقي فاللغتان الرئيسيتان هما العربية والكردية. وتعتبراللغتان العربية والأمازيغية اللغتين الوطنيتين في المجتمعين الجزائري والمغربي. يلاحظ أن **اللغات المحلية الخاصة** في هذه المجتمعات المزدوجة اللغة هي التي **تحدد أكثر هويتهم**. فسكان مقاطعة كيباك بكندا يعرّفون هويتهم في المقام الأول بلغتهم الفرنسية، وكذلك الشأن لدى أكراد العراق الأمر الذي جعل الكيباكيين والأكراد ينادون حتى بالانفصال السياسي عن مجتمعيهما الكبيرين: كندا والعراق (Clement, Landry 1984 :293-313,337), (Leclerc 1986).

٣ – ليست اللغة العامل الوحيد في تحديد هويات الأفراد والجماعات والمجتمعات. فالدين واللون والعرق، كما رأينا في مقدمة هذا البحث، هي أيضا عوامل محددة

للهويات. لكن تلعب **اللغة المشتركة** بين الناس دورا حاسما في **خلق هوية جماعية** في مجتمع ينتمي أفراده وفئاته إلى ديانات وأعراق وألوان مختلفة.

٤ – إن أهمية اللغات في إنشاء الهويات في الحالات الثلاث السابقة الذكر تشير إلى أن **اللغات الأصلية/المحلية**، وليست اللغات الأجنبية الوافدة لتلك المجتمعات، **هي المحددة لهويات الأفراد والمجتمعات**. ومن هنا، تطرح مسألة تأثير اللغة/اللغات الأجنبية على قضية الهويات في المجتمعات المستقبلة والمستعملة للغات الأجنبية. يتم مجيء لغة/لغات أجنبية إلى المجتمعات المعاصرة كنتيجة للاستعمار أو الهيمنة الخارجية؛ مما قد يؤدي إلى تنافس بين اللغة/اللغات الوطنية/المحلية واللغة/اللغات الأجنبية. وهذا ما يشهد عليه دخول اللغة الفرنسية في المجتمعات المغاربية منذ احتلال فرنسا للبلاد الجزائرية في مطلع القرن التاسع عشر. **فالحضور القوي للغة الفرنسية** في الجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا أثناء الاحتلال الفرنسي، وفي عهد الاستقلال، يمثل **منافسة شديدة** للغات الوطنية لتلك الشعوب: اللغة العربية واللغة الأمازيغية. ونظرا لأن الفرنسية ليست باللغة الوطنية/المحلية في مجتمعات المغرب العربي، فإن وجودها الواسع في هاته المجتمعات **لم يجعل** الأغلبية الساحقة من سكانها يرغبون في الانتماء إلى الهوية الفرنسية. ولكن هذا لا يعني أن ليس للغة الفرنسية تأثيرات أخرى في هاته المجتمعات وفي طليعتها التأثير السلبي على علاقة الجزائريين والتونسيين والمغاربة والموريتانيين باللغة العربية كما سنرى ذلك في دراسة حالة المجتمع التونسي في هذا البحث. وبعبارة أخرى، يمكن القول بأن التأثير السلبي على اللغة العربية والمتمثل في إقصائها من الاستعمال في عدة ميادين، والنظر إليها بالدونية عند كثير من سكان المغرب العربي قد يؤدي عند الكثيرين إلى **تشويش وإرباك** بالنسبة للانتساب الواضح والقوي للهوية العربية، وذلك بسبب العلاقة الوثيقة بين اللغة والهوية، كما سبق ذكرذلك. وهذا ما تشهده الساحة التونسية بعد الثورة. إذ

توجد أقلية تونسية فرونكفونية لغة وثقافة تشكك في انتساب الشعب التونسي إلى الهوية العربية الإسلامية، وهو ما يشير إلى أنها تشكو من أعراض أزمة **هوية لغوية ثقافية**.

وللقرب أكثر من المعطيات حول علاقة اللغات بهويات الأفراد والمجتمعات يمكن ذكر بعض الأمثلة المحسوسة. تشير الملاحظات الميدانية وبعض البحوث إلى وجود علاقة وثيقة بين اللغات وهويات الشعوب. يتضح ذلك، مثلا، في مجتمعات الاتحاد الأوروبي التي تتحدث عدة لغات وطنية (Kraus 2008). فكل شعب من تلك الشعوب يعرّف هويته بواسطة لغته الوطنية. فالألمان والإسبان والإنجليز والفرنسيون والإيطاليون يعبرون عن هوياتهم الجماعية عبر لغاتهم الوطنية التي يتحدثونها، ويتعاملون بها في الكتابة. فنجد أن اللغات الوطنية في تلك المجتمعات هي لغات التعليم في مراحله المختلفة مما يعزز العلاقة الوثيقة بين اللغات الوطنية وهويات الشعوب الأوروبية المتنوعة. أي أن التدريس باللغات الوطنية في كل مراحل التعليم يعتبر أمرا طبيعيا وواجبا بالنسبة للمحافظة على تأصيل طبيعي للعلاقة بين اللغات الوطنية والهويات في تلك المجتمعات. وهكذا، يجوز وصف سياسة الاقتصار على التعليم باللغات الوطنية فقط بأنها سياسة طبيعة وأصيلة وذات مشروعية قوية لدى المجتمعات صاحبة السيادة اللغوية الكاملة.

أما الوضع في بعض المجتمعات المعاصرة من العالم الثالث على الخصوص ومن ضمنها المجتمعات العربية، فإن التعليم في بعض مراحله أوكلها لا يتم باللغات الوطنية بل بلغات أجنبية طالما تكون لغات المستعمر القديم أو لغات القوى العظمى صاحبة الهيمنة الواسعة في العصر الحديث، وفي طليعتها الولايات المتحدة الأمريكية. ومن هنا، تطرح مسألة تأثير التدريس باللغات الأجنبية على هويات الشعوب. والمجتمع التونسي الحديث مثال على ذلك. فهو يدرّس العلوم باللغة الفرنسية فقط ابتداء من مرحلة التعليم الثانوي، ويستعملها أيضا بطريقة واسعة في عدة قطاعات اجتماعية ومؤسسات وطنية، وفي الشؤون الشخصية لكثير من

التونسيات والتونسيين. ومن ثم، فالبحث في هذه الدراسة لا يقتصر فحسب على تعرف تأثير اللغة الفرنسية كلغة تعليم على الهوية العربية في المجتمع التونسي بل يهتم بالتوازي بدراسة **تأثير الانتشار الواسع للغة الفرنسية** في هذا المجتمع على مسألة **الهوية العربية** فيه. لقد سبقت الإشارة أعلاه في الملاحظة رقم ٤ أن حضور اللغات الأجنبية/غير الوطنية/المحلية في المجتمعات لا يؤثركثيرا على هويات أغلب المواطنين فيها. وهذا ما سوف يتجلى في دراسة المجتمع التونسي في هذا القسم، وفي القسم الثالث من هذا البحث.

فاعتمادا على ما ورد في الملاحظات السابقة، وفي الإطار الفكري قبله في القسم الأول من البحث حول هوية الإنسان اللغوية، يطرح صاحبُ الدراسة الآن مسألة انتشار اللغة الفرنسية في المجتمع التونسي وقضية الهوية فيه. وبذلك يجمع موضوع هذا البحث بين الفكر النظري والميداني الذي يركز على مجتمع ما. فتدرس صفحات البحث ظاهرة الانتشار الواسع للغة الفرنسية في المجتمع التونسي، ومدى تأثير ذلك على كل من اللغة العربية والهوية العربية في هذا المجتمع. فمنهجية العلوم الاجتماعية ترى أن مجال هذه الظاهرة أكثر قابلية للاختبار العلمي. إذ يصعب على رؤية تلك العلوم النظر إلى لغة التعليم/التدريس كمتغير/عامل مستقل في التأثير على مسألة الهوية (أنجرس ٢٠٠٤ : ١٦٨ – ١٧٢). ففي دراسته في هذا البحث لأثر التدريس بغير اللغة العربية (اللغة الفرنسية) على الهوية العربية بالمجتمع التونسي وعلى اللغة العربية نفسها، يرى الباحث أنه يمكن وصف العلاقة بين لغة التعليم والهوية بأنها **علاقة مركبة** تتكون من مستويين على الأقل: أ – تأثير لغة التدريس الفرنسية على علاقة الفرد التونسي مع اللغة العربية/الوطنية. ب – احتمال تأثر الانتساب للهوية العربية بسبب حضور اللغة الأجنبية، وذلك لما للعلاقة القوية بين اللغة الوطنية/المحلية والهوية كما رأينا في الحالة الأوروبية وغيرها. ويكفي ذكر ثلاثة أمثلة لتوضيح الأمر: ١– فاحتمال تأثير التعليم باللغة الفرنسية على الهوية العربية للتونسيين في مجتمعهم مرتبط بعوامل أخرى مثل زمن التعليم بتلك اللغة:

مراحل الطفولة أم المراهقة أم الكهولة أم البعض منها أم هي جميعا. ٢- أما عامل ما يسميه صاحب الدراسة **المناعة اللغوية الثقافية العربية** فهي تؤثر إيجابيا على الانتساب القوي للتونسيين إلى الهوية العربية الإسلامية. **فخريجو التعليم الزيتوني القديم** يتمتعون بتلك المناعة بسبب أن اللغة العربية هي لغة التعليم في كل مراحله. فهم يتصفون بتمسك متين بهويتهم العربية الإسلامية حتى إذا درسوا باللغة الفرنسية في الجامعات داخل أو خارج البلاد التونسية، وذلك بعد نهاية تعليمهم الثانوي المعرب بالكامل.٣- تفيد الملاحظات الميدانية في المجتمع التونسي المعاصر أن تدريس التونسيات والتونسيين باللغة الفرنسية في عهد الاحتلال قاد أغلبية هؤلاء إلى تفضيل استعمال اللغة الفرنسية على اللغة العربية التي يتقنونها، كما هو الشأن لدى **خريجي المدرسة الصادقية** المتزنة الازدواجية اللغوية التي سوف نتعرف لاحقا على تفاصيل أكثر حولها في متن هذا القسم من البحث. يتطلب الطرح العلمي هنا إضافة أخذ **عامل الاستعمار** بعين الاعتبار إلى جانب عامل تدريسهم باللغة الفرنسية في تفسير تفضيل هؤلاء التونسيين للغة المستعمر. إذن، فلا يجوز وفق رؤية المنهجية العلمية المطروحة هنا النظر إلى التعليم باللغة الأم أو بلغة أجنبية كمتغير مستقل في التأثير على هويات الأفراد والمجتمعات.

الخريطة اللغوية للمجتمع التونسي :

تشير الإحصائيات اليوم إلى أن سكان البلاد التونسية يبلغون أكثر من عشرة ملايين بقليل. يقع استعمال أربعة وسائل لغوية في المجتمع التونسي، وهي: اللغة العربية الفصحى، والعامية التونسية (الفرنكوأراب = عربية ممزوجة بعدد كبير من الكلمات والجمل الفرنسية)، واللغة الفرنسية، واللغة الأمازيغة؛ فالعامية التونسية هي الأكثر استعمالا بين كل فئات الشعب التونسي بينما تهيمن اللغة الفرنسية في مرحلتي التعليم الثانوي والجامعي في تدريس ما يسمى العلوم الصحيحة مثل الطب والرياضيات والبيولوجيا/علم الحياة.وتسيطر كذلك الفرنسية على كتابة البحوث وتأليف الكتب في تلك العلوم. أما اللغة العربية الفصحى فيقع استعمالها في الشؤون

الدينية، وبعض القطاعات الإدارية وفي التدريس في كل مقررات مراحل التعليم الابتدائية والاعدادية وفي كثير من مقررات العلوم الاجتماعية والإنسانية بالتعليم العالي/الجامعي. وأخيرا تتحدث أقلية صغيرة جدا من التونسيين اللغة الأمازيغية/ البربرية خاصة في الجنوب التونسي و تفيد الإحصائيات أن المتحدثين بهذه اللغة يمثلون أقل من واحد بالمئة من سكان القطرالتونسي. ووقع إنشاء جمعية الحفاظ على الثقافة الأمازيغية بما فيها اللغة في تونس ما بعد الثورة.

وبناء على ما سبق ذكره، فالمجتمع التونسي هو عموما **مجتمع متجانس** على مستوى استعماله في المقام الأول للغة العربية في شكليها الفصيح والعامي رغم حضورالفرنسية الكبير. وهذا خلافا للوضع اللغوي في كل من الجزائر والمغرب حيث يمثل المتحدثون باللغة الأمازيغية أكثر من أربعين في المئة في الجزائر، وأكثرمن خمسين في المئة بالمغرب. يفسر بعض المؤرخين هيمنة اللغة العربية في القطر التونسي بسبب أن عدد السكان ذوي الأصل العربي بعد الفتوحات الإسلامية بالبلاد التونسية كان متفوقا على غيره من السكان من أصول أخرى (عبد الوهاب ١٩٦٤: ٢٥-٣٦).

العلاقة النفسية والاجتماعية بين التونسيات والتونسيين واللغة العربية :

إن دراسة الباحث لعلاقة اللغة بالهوية في المجتمع التونسي تستعمل أدوات وأساليب كيفية في التحليل والتفسير للمسائل المثارة في متن هذه الدراسة، وتركز في المقام الأول على **تشخيص العلاقة النفسية والاجتماعية** بين مواطني المجتمع التونسي واللغة العربية. فقد سمح له الاهتمام بالموضوع اللغوي بالمجتمع التونسي الحديث منذ الربع الأخير من القرن العشرين **بإنشاء/بابتكار مجموعة من المفاهيم** التي تصلح للفهم والتفسير، والتحليل للظواهر اللغوية، وما يرتبط بها في هذا المجتمع. ويمكن اعتبار هذه المفاهيم الجديدة بأنها ذات طبيعة أصيلة؛ لأنها مستلة مباشرة من واقع المجتمع التونسي.يقتصرالباحث هنا على التعريف **بأربعة** منها يمكن استعمالها في البحث في المسألة اللغوية والهوية بالمجتمع التونسي: التخلف الآخر، الازدواجية اللغوية الأمارة، التعريب النفسي والازدواجية اللغوية الأنثوية.

لقد تبلورت صياغته الإمبيريقية لمفهوم «**التخلّف الآخر**» (الذوادي ٢٠٠٢) من خلال اعتبارهذا المفهوم متكونا من معلمين اثنين من التخلف: أ- التخلّف الثقافي، ب- التخلّف النفسي. وللتخلّف الثقافي بدوره ثلاثة ملامح:

١ - التخلّف اللغوي الذي يتمثل عادة في **محدودية استعمال لغة المجتمع الوطنية**؛ وذلك لانتشار استعمال لغة أجنبية محلها في كثير من الميادين خاصة العصرية منها. إن منافسة اللغة الفرنسية للعربية بمجتمعات المغرب العربي مثال على ذلك.

٢ - التخلّف المعرفي/العلمي الذي يمّس ما يمكن تسميته بالزاد المعرفي/العلمي الوطني/القومي (في العلوم الدقيقة وفي المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية) لمجتمعات الوطن العربي ومجتمعات العالم الثالث. ففي العصر الحديث أصبحت هذه المجتمعات تعتمد إلى حد كبير على الزاد المعرفي/العلمي الغربي في كل تلك المعارف و العلوم.

٣ - إن التخلّف القيمي الذي تعرضت له قيم تلك المجتمعات عبر احتكاكها في العصر الحديث بالغرب الغالب سمح بانتشار قيمه بين هذه الشعوب المغلوبة خاصة قيم التحديث والعصرية. ومن ثم، تلاشت بعض القيم التقليدية الأصيلة، من جهة، ودخلت، من ناحية أخرى، بعض القيم في صراع مع القيم الغربية الغازية. ومن هنا جاء تصوّرصاحب الدراسة للتخلّف (إفقار) على مستوى القيم الأصيلة الوطنية/القومية لهذه المجتمعات.

وباختصار، فإن هذه الأصناف الثلاثة للتخلّف الثقافي تمثل في النهاية إفقارا (تخلّفا) لهذه العناصر الثلاثة وهي اللغة والمعرفة الثقافية والعلمية والقيم الثقافية. وكل هذه العناصر هي مكونات مهمة جدا لمنظومة ثقافات مجتمعات العالم الثالث بما فيها المجتمعات العربية.

إن هذه الملامح الثلاث للتخلّف الثقافي تحدث بدورها ظاهرة ما أطلق عليه الباحثُ التخلّف النفسي الذي يتجلى في شكلين:

١ – ظاهرة الشعور بمركب النقص لدى شعوب العالم الثالث إزاء المجتمعات الغربية. كما يظهر ذلك في بعض السلوكات اللغوية التونسية إزاء استعمال اللغة العربية. فالأغلبية الساحقة من التونسيين اليوم لا تستعمل حروفا عربية لكتابة صكوكها/شيكاتها المصرفية لشعورها أن كتابتها باللغة العربية رمز للتخلف. ويرجع هذا الأمر في نظرصاحب الدراسة إلى تأثيرات ملمحي (١و٢) من التخلّف الثقافي المشار إليهما سابقا.

٢ – إن النوع الثالث «٣» من التخلّف الثقافي (التخلّف على مستوى القيم) المذكور آنفا يمكن أن يؤدي في مجتمعات الوطن العربي والعالم الثالث إلى ما أطلق عليه علماء الاجتماع المعاصرون الشخصية المضطربة (Disorganized Personality) التي يمكن أن تبدو عليها أعراض نفسية غيرسليمة. يوجز الرسم التالي ما ورد حول هذا المفهوم الجديد: التخلف الآخر:

الرسم ٢

<table>
<tr><td></td><td colspan="2">التخلّف الثقافي– النفسي (التخلّف الآخر)</td><td></td></tr>
<tr><td rowspan="2">(أ)
ملامح
التخلّف
الثقافي
←</td><td>١– التخلّف اللغوي ←
– التخلّف المعرفي
– العلمي ←</td><td>١– الشعور بمركب النقص
إزاء الغالب
→ (الغرب)</td><td rowspan="2">(ب)
ملامح
التخلّف
النفسي
→</td></tr>
<tr><td>– التخلّف على مستوى
القيم ←</td><td>الشخصيةالمضطربة
وأعراض ثقافية ونفسية
غيرسليمة →</td></tr>
</table>

أما مفهوم **الازدواجية اللغوية الأمارة** فيعني تلك الازدواجية اللغوية التي لاتكون فيها للغة الأم/الوطنية المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات مزدوجات ومزدوجي اللغة. أي أن اللغة الوطنية لاتحتل المرتبة الأولى عند هؤلاء على المستوى العاطفي والنفسي، وعلى المستوى الذهني والفكري، وعلى مستوى الممارسة والاستعمال. فإن أصحاب الازدواجية اللغوية الأمارة تجدهم **غير متحمسين كثيرا للذود عن لغتهم الوطنية** وغير مبالين إزاء عدم استعمالها في شؤونهم الشخصية وفي ما بينهم في أسرهم واجتمعاتهم ومؤسساتهم بحيث تصبح عندهم في حالات عديدة **لغة ثانية أو ثالثة**.

يجوز بدرجات مختلفة تطبيق هذا المفهوم في المجتمع التونسي المعاصر على خريجي مدارس البعثات الفرنسية في عهدي الاحتلال والاستقلال والمدرسة الصادقية، والمدارس والجامعات التونسية لفترة ما بعد الاستقلال. فالملاحظات الميدانية المتكررة، وفي ظروف مختلفة للسلوكات اللغوية لمعظم هؤلاء الخريجات التونسيات والخريجين التونسيين تفيد، منذ الاستقلال وحتى يومنا هذا، أن اللغة العربية/الوطنية لا تتمتع بعفوية وحماس لديهن ولديهم بالمكانة الأولى على المستويات الثلاثة المشارإليها سابقا. وهكذا يتضح أن ظاهرة الازدواجية اللغوية ليست كلها خيرا كما تعتقد أغلبية التونسيات والتونسيين المثقفين و المتعلمين على الخصوص، كما سنرى في بقية صفحات هذه الدراسة.

أما **التعريب النفسي** فيتمثل في أن اللغة ا لعربية لم تكسب بعد عند أغلب هؤلاء علاقة حميمية حقيقية تجعلها عندهم صاحبة المكانة الأولى في قلوبهم بحيث يلجأ ون عفويا وبتحمس وافتخار إلى استعمالها في شؤون حياتهم الشخصية والاجتماعية قبل أي لغة أخرى. **فمعظم التونسيات والتونسيين لم يطبعوا بعد علاقاتهم مع اللغة** العربية لا على المستوى النفسي ولا في المجال الاجتماعي. يلاحظ ذلك في موقف أغلبيتهم الناقص التحمس والغيرة على اللغة العربية، من جهة، وموقف الاحتقار لها والسخرية منها عند البعض، من جهة أخرى. ويجوز اليوم وصف الموقف

العام للتونسيات والتونسيين المتعلمين والمثقفين على الخصوص من اللغة العربية بأنه موقف لا يزال بعد الثورة دون مستوى التطبيع الكامل نفسيا واجتماعيا.

وبالنسبة لعاملي الجنس وجندر/النوع الجنسي، تفيد دراسات الباحث والملاحظات العامة أن النساء التونسيات المتعلمات والمثقفات خصوصا يملن في كلامهن **أكثر** من نظرائهن من الرجال التونسيين إلى استعمال **النبرة الباريسية**، ورصيد أكبرمن الكلمات والعبارات الفرنسية في حديثهن. وهذا ما يسميه صاحب البحث **الازدواجية اللغوية الأنثوية** التي لايكاد يتطرق إليها الباحثون التونسيون وغيرهم في المغرب العربي رغم دراسة هذه الظاهرة في المجتمعات الغربية (Holmes & Meyerhoff 2005). يجوز اليوم تصنيف لغة الأم عند النساء التونسيات إلى ثلاثة أنواع: ١- العامية التونسية العربية النقية التي لا تستعمل إلا المفردات العربية. وهي ظاهرة نادرة بين معظم التونسيات.٢ - العامية التونسية التي تحتوي على عدد كبير من الكلمات والجمل الفرنسية. ومن ثمّ يمكن تسميتها **بالفرنكوأراب العامية** المتداولة في كامل المجتمع التونسي. ٣ - **الفرنسية كلغة أم** في المقام الأول لعديد التونسيات. إنها ظاهرة موجودة بدون شك بعد أكثر من خمسة عقود من الاستقلال، وربما تكون ظاهرة أكثر انتشارا من الصنف الأول من العامية التونسية المشار إليها. وهكذا يتضح أن اللغة الأم عند الأغلبية الساحقة من التونسيات ليست العامية التونسية العربية النقية وإنما هي الفرنكوأراب. يبرز الجزء الثالث من هذا البحث معالم أخرى للازدواجية اللغوية لدى المرأة التونسية ذات علاقة بالهوية العربية.

اللغة الفرنسية غنيمة :

ولكي يحلل صاحبُ البحث أكثر وضع اللغة العربية في المجتمع التونسي، يدعونا لتعرف فكر كاتب ياسين بهذا الصدد. من المعروف أن عبارة «**اللغة الفرنسية غنيمة حرب**» قد استعملها هذا المفكر الجزائري الذي ولد في ١٩٢٩ بمدينة قسنطينة بالجزائر وتوفي سنة ١٩٨٩ بمدينة جرونوبل بفرنسا. لقد كتب معظمَ

مؤلفاته بلغة موليار، وبعضها بالعامية الجزائرية في آخر حياته. وكما هو منتظر، يُردد الكثير من المثقفين والمتعلمين الفرنكوفونيين في المجتمعات المغاربية قول ياسين هذا. أي بأن اللغة الفرنسية هي عبارة عن غنيمة كسبتها تلك المجتمعات من المستعمر الفرنسي، ويجب أوينبغي، إذن، المحافظة عليها.

هل الفرنسية غنيمة للشعب التونسي؟

لنفحص مدى مصداقية أوبطلان موقف المنادين المغاربيين بشعار اللغة الفرنسية على أنها «غنيمة حرب» كما جاء في القول المشهور لكاتب ياسين: أي أنها مكسب مجاني أتى بدون مشقة، وليس فيه ضرر وخسارة للمجتمعات المغاربية المرحبة بتبني مثل ذلك الشعار. يود صاحب الدراسة الكشف هنا عن معالم الخسارة والضرر للغات الوطنية بسبب مجيء اللغات الأجنبية الدخيلة إلى المجتمعات البشرية. ونظرا لتركيزبؤرة البحث على المجتمع التونسي، فاختياردراسة **جوانب الخسارة والضرر** التي تعرضت وتتعرض لها **اللغة العربية** فيه أمر مشروع بحثيا بسبب دخول اللغة الفرنسية وهيمنتها في هذا المجتمع بعد مجيء الاحتلال الفرنسي للقطر التونسي في سنة ١٨٨١. وباستثناء ليبيا، يمكن تعميم نتائج هذا الجزء من البحث على بقية مجتمعات المغرب العربي: الجزائر والمغرب وموريتانيا. ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن **الاستعمار الفرنسي**، مقارنة بنظيره الإنكليزي، **يعطي أهمية كبرى لنشر لغته وثقافتها** وتعليمهما لسكان المجتمعات التي يحتلها. ومن ثم، تأتي مشروعية تفسير ظاهرة التنافس الكبير الذي كسبت رهانه اللغة الفرنسية ضد اللغة العربية في عديد القطاعات بالمجتمع التونسي وغيره من المجتمعات المغاربية أثناء الاحتلال الفرنسي وبعد الاستقلال (الفهري ٢٠٠٥، بوقمرة ١٩٨٥، الجمعية الجزائرية ٢٠٠٥).

حضور الفرنسية وخسارة العربية:

يركز الباحث هنا على بعض معالم التنافس الخطيرة بين االلغات في المجتمعات البشرية (وافي ١٩٥١:٩٥. ١١٩) وهوما طرحه ويطرحه بالتأكيد حضورُ اللغة الفرنسية على اللغة العربية في عهديْ الاحتلال والاستقلال بالبلاد التونسية:

(أ) اللغة الفرنسية (اللغة الغنيمة كما يراها كاتب ياسين) هي اليوم **لغة الاستعمال الأولى** بعد أكثر من نصف قرن من الاستقلال لدى الكثير من التونسيات والتونسيين ومؤسساتهم. لا يسمح هذا الواقع اللغوي التونسي بالقول إن اللغة الفرنسية هي مجرد غنيمة للمجتمع التونسي بريئة من السلبيات. لأن مجيء هذه اللغة أضر بوضع اللغة العربية بسبب منافسة اللغة الفرنسية لها ليس في عصر الاحتلال الفرنسي فقط، وإنما أيضا في عهد الاستقلال. بذلك **خسرت اللغة العربية مكانتها الأولى** (الذوادي ٢٠٠٨) في التعامل بين التونسيات والتونسيين وفي مؤسساتهم في مجالات لاتكاد تُحصى داخل المجتمع التونسي منذ تمركز الاستعمار الفرنسي به في نهاية القرن التاسع عشر في ١٨٨١.

(ب) إن الحضور القوي للغة الفرنسية في عهديْ الاحتلال والاستقلال بالبلاد التونسية أدى إلى حالة من الاغتراب مع اللغة العربية خاصة لدى الكثير من التونسيات والتونسيين المثقفين والمتعلمين. وتتمثل حالة الاغتراب هذه في ضُعف وجود علاقة حميمية بين هؤلاء ولغتهم الوطنية بحيث لا يكادون يعتزون بها، ويغارون عليها، ويدافعون عنها بطريقة عفوية ومتحمسة. يشبه هذا الشعور باغتراب الناس عن لغتهم الشعور باغتراب الناس عن وطنهم. وهذا التشابه ليس بالأمر الغريب، إذ اللغة هي أكبر المعالم المحددة لهوية الوطن، كما رأينا. ولذلك قيل إن **اللغة هي الوطن**. ومن ثم، فمن تسكنه في العمق لغة وطنه يسكنه وطنه في العمق أيضا في حلّه وترحاله داخل هذا الوطن وخارجه (اللغة العربية والوعي القومي ١٩٨٤ : ٩ ـ ١٦). ومما لا يحتاج إلى برهان أن منافسة اللغة الفرنسية للغة العربية التي نتجت عنها حالة الاغتراب مع اللغة العربية بين العديد من التونسيات والتونسيين المثقفين والمتعلمين على الخصوص لاتعطي تأييدا مشروعا لشعار كاتب ياسين «اللغة الفرنسية غنيمة حرب». فحضور حالة الاغتراب للغة العربية بين أهلها بالمجتمع التونسي في

فترتيْ الاستعمار والاستقلال بسبب الحضور والانتشار الواسع لاستعمال اللغة الفرنسية يمثل بكل المقاييس الموضوعية **ضررا وخسارة للغة العربية**، اللغة الوطنية والرسمية للبلاد التونسية، والتي وقع تهميشها أوإقصاؤها بالكامل من الاستعمال في المجتمع التونسي أثناء الاحتلال الفرنسي، وبعد نيل الاستقلال في ١٩٥٦. ومن منظور علم اجتماع اللغة، فإن تلك الظروف الاستعمارية تفسر حصول ظاهرة الاغتراب بين المجتمع التونسي، واللغة العربية، وانتشار معالم التخلف الآخر فيه قبل الاستقلال وبعده وحتى عقب رياح الثورة في مطلع ٢٠١١.

(ت) إن وضع اللغة العربية المشار إليه في (أ) و (ب) يؤدي حتما إلى نتيجة ثالثة ليست في صالح شعار كاتب ياسين. فإعطاءُ اللغة الفرنسية المكانة الأولى أو الواسعة في الاستعمال والانتشار وحضور حالة الاغتراب مع اللغة العربية في المجتمع التونسي لدى عدة قطاعات وعند كثير من الأفراد والفئات الاجتماعية التونسية يدفعان بالضرورة اللغة العربية إلى **حالة فقر** في زادها اللغوي. إذ اللغة كائن حي. فهي تستمد نبض حياتها وتطورها من عملية الاستعمال الكامل والشامل لها في مجتمعها. وفي المقابل، يصيبها التراجع والجمود والتأخر، وحتى الاندثار إن هي أُقصيت قليلا أو كثيرا أوبالكامل من فرصة الاستعمال الكامل في حلبة كل أنشطة المجتمع بأصنافها المختلفة . ومنه، فإن الحد من استعمال اللغة العربية بدرجات مختلفة بالمجتمع التونسي لصالح اللغة الفرنسية (الغنيمة) منذ مجيء الاستعمار الفرنسي في ١٨٨١ **لا يمكن اعتباره بالمقاييس النزيهة غنيمة**: أي مكسبا إيجابيا للغة العربية، لغة البلاد. إذ هو يمثل عامل تخلف للغة العربية. تلك هي المعادلة الصحيحة والدقيقة لفهم أحوال اللغات سلبا وإيجابا في مجتمعات الشرق والغرب، وفي طليعتها المجتمعات العربية المعاصرة.

(ث) هل يجوز، إذن، اعتبار اللغة الفرنسية غنيمة إذا أصبح استعمالها مصدرا **لبث مركّبات النقص والشعور بالدونية** إزاء استعمال اللغة العربية لدى المواطنات والمواطنين التونسيين؟ يكفي هنا ذكرمثال واحد لتجلى أعراض مركبات النقص لدى التونسيات والتونسيين من استعمال اللغة العربية. يخجل أكثرمن ٩٥ في المئة من التونسيات والتونسيين اليوم من كتابة صكوكهم المصرفية/ شيكاتهم باللغة العربية. يعود ذلك في منظورعلم الاجتماع إلى **تأثيرالتنشئة الاجتماعية السلبية حول اللغة العربية** التي يتلقاها ويتعلمها هؤلاء في مجتمعهم المتأثر بإيديولوجيا المستعمر الفرنسي، والنخب السياسية والثقافية التونسية المغتربة لغة وفكرا بعد الاستقلال. يساعد مفهوم التنشئة الاجتماعية السلبية على تفسيرظاهرة **سخرية الأغلبية التونسية** من الأقلية التونسية الصغيرة جدا التي لاتزال تكتب صكوكها وتمضيها باللسان العربي. فاستعمال اللغة الفرنسية في كتابة الصكوك يمثل بوابة لنشر وغرس مركب النقص والشعور بالدونية في الشخصية القاعدية التونسية. وهكذا، يدحض هذا السلوك اللغوي المغترب عن اللغة العربية مقولة شعار كاتب ياسين «اللغة الفرنسية غنيمة حرب».

الفرنسية نعمة أم نقمة على اللغة العربية :

ولتفنيد مقولة كاتب ياسين أكثر وبيان معالم الخسارة لا الغنيمة للغة العربية بسبب مجيء اللغة الفرنسية إلى المجتمع التونسي، يمكن القيام بتعرف اتجاهات/ مواقف التونسيات والتونسيين اليوم كأفراد ونخب سياسية وثقافية، وجماعات ومؤسسات، وطبقات اجتماعية، من اللغة العربية، ثم تحليل انعكاسات تلك المواقف على شخصية التونسيات و التونسيين وثقافة مجتمعهم.

يوجد اليوم بين أغلبية التونسيات والتونسيين **اتجاه/موقف جماعي** عام ينادي ويرحب بالتفتح على لغة وثقافة الآخر الغربي والفرنسي على الخصوص.

فيحتل التفتح على لغة فرنسا وثقافتها الصدارة. وكما بينت المعطيات السابقة، تفيد الملاحظات الميدانية لعلاقة التونسيات والتونسيين باللغة العربية بأن هذه الأخيرة لا تتمتع عموما بالمكانة الأولى في قلوب وفي عقول وفي استعمالات الأغلبية منهم، وذلك بعد أكثر من خمسة عقود من الاستقلال. يرى علم النفس الاجتماعي أن مثل هذا الموقف الجماعي من اللغة الوطنية ليس بالموقف الطبيعي في الظروف العادية بين المجتمع ولغته. بينما كانت علاقة التونسيات والتونسيين باللغة العربية علاقة طبيعية وحميمية قبل مجيء الاستعمار الفرنسي عام ١٨٨١. ومن ثم، فعلاقة الناس ومجتمعاتهم بلغاتهم ولغات الآخرين ليست بالأمر الثابت والمستقر بل هي تتأثر بعوامل خارجية وداخلية في المجتمعات البشرية. وهكذا يجوز القول وبكل مشروعية بأن الاتجاه/الموقف غير العادي المشوب بالسلبية عند الكثير من التونسيات والتونسيين اليوم من اللغة العربية **هو وليد للاحتلال الفرنسي** الذي بذل جهودا كبيرة في نشر لغته في المجتمع التونسي المستعمَر لإحلالها محل اللغة العربية قدر المستطاع. إن علاقة الغالب بالمغلوب ساعدت على غرس حالة الاغتراب بين التونسيات والتونسيين ولغتهم الوطنية، من جهة، وبث موقف التحقير للغة العربية والشعور بمركب النقص بينهم إزاء استعمال اللغة العربية أو الدفاع عنها، من جهة ثانية. وبالتأكيد **ليس في ذلك من غنيمة للغة العربية في المجتمع التونسي المعاصر**، كما يدعي كاتب ياسين.

إن حالة الاغتراب هذه التي نشرها المستعمر الفرنسي بين التونسيات والتونسيين ولغتهم الوطنية وجدت ظروفا **داخلية** مناسبة ساعدت على بقائها لأكثر من نصف قرن بعد استقلال تونس. وكما وقعت الإشارة، تتمثل هذه الظروف في المقام الأول في موقف السلطة السياسية لفترة الاستقلال من الإرث اللغوي الثقافي الاستعماري الفرنسي. هناك مؤشرات عديدة تفيد أن القيادة السياسية البورقيبية للعقود الثلاثة الأولى من الاستقلال كانت **ترحب باستمرار بقاء ذلك الإرث الاستعماري في المجتمع التونسي**. أي أن تلك القيادة لاتكاد تعتبر

ذلك الإرث اللغوي الثقافي الفرنسي معلما من معالم الاستعمار. وبعبارة أخرى، فقد نادت القيادة البورقيبية بالتحرر من الاحتلال الفرنسي السياسي والعسكري والفلاحي، فتحصلت تونس على ذلك، لكن هذه القيادة **لم يُعرف عنها** أنها دعت أو كانت متحمسة للتحرر من الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي. وبناء على ذلك، يجد المحلل لخطاب التونسيات والتونسيين في عهد الاستقلال **غيابا كاملا** لمفردات **الاستقلال أو الجلاء اللغوي الثقافي**. والناس، كما يقال، على دين ملوكهم. فإن النخب السياسية والثقافية والمتعلمة والطبقات الاجتماعية العليا والمتوسطة على الخصوص في عهد الاستقلال تبنت هي الأخرى **موقفا/اتجاها جماعيا** لا ينظر إلى الإرث اللغوي الثقافي الفرنسي على أنه ضرب من الاستعمار. وباستمرار هذا الموقف الجماعي بين معظم التونسيات والتونسيين إلى يومنا هذا، تُفهم وتُفسر أسبابُ استمرار حالة الاغتراب بين التونسيات والتونسيين واللغة العربية التي عمل ونجح المستعمر الفرنسي في غرسها في الشخصية القاعدية للتونسيات والتونسيين، وفي بنية مؤسسات مجتمعهم.

معالم اغتراب اللغة العربية في المجتمع التونسي :

فبمنهجية البحوث الميدانية في العلوم الاجتماعية، يمكن قياس حالة اغتراب التونسيات والتونسيين مع اللغة العربية بالمؤشرات الآتية :

١ – فقدان أوضُعف وجود شعور عفوي قوي ومتحمس بعد الاستقلال وبعد الثورة لصالح استعمال اللغة العربية لدى أغلبية التونسيات و التونسيين.

٢ – غياب اعتراض معظم التونسيات و التونسيين على كتابة شيكاتهم باللغة الفرنسية، من ناحية، وتعجبهم وسخريتهم ممن يكتبونها باللغة العربية، من ناحية أخرى.

٣ – تفيد الملاحظات أن قلة من التونسيات و التونسيين يقومون بتأبين موتاهم باللغة الفرنسية.

٤ – لا يكاد يشد انتباه أغلبية التونسيات والتونسيين غياب اللغة العربية في كتابة

اللافتات في المغازات وغيرها من الفضاءات العامة. ومن ثم، **لا يكاد يحتج أحد** على ذلك ويطالب بكتابة اللافتات باللغة العربية . تشير الملاحظة الميدانية أن الأغلبية الساحقة من ملايين التونسيات والتونسيين **تلوذ بالصمت إزاء الدفاع عن اللغة العربية** وجعل حضورها واجبا في كتابة اللافتات.

٥ – ضعف وجود علاقة ودية وحميمية بين معظم التونسيات والتونسيين ولغتهم العربية، أي أنه لا يوجد عند أغلبية التونسيات والتونسيين ما يسميه صاحب الدراسة التعريب النفسي الذي يمنح اللغة العربية المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات التونسيات والتونسيين. إن غياب **التعريب النفسي** هو السبب الرئيسي لضمور التعريب الكتابي والكلامي بين أغلبية التونسيات والتونسيين قبل الثورة وبعدها.

٦ – من المعروف جدا **قبل الثورة وبعدها** أن اللغة العربية ليس لها حضور أو هي لغة ثانية أو ثالثة في عدد كبير من الاجتماعات المهنية للتونسيات و التونسيين أو في الندوات العلمية التي تقام بالمجتمع التونسي دون حضور أجانب فيها.

٧ – وكما سيبيّن الباحثُ في القسم الثالث من هذه الدراسة، تفيد الملاحظة الميدانية للسلوك اللغوي بالمجتمع التونسي أن **التونسيات هن أكثر انجذابا** من الرجال **لاستعمال اللغة الفرنسية**.ومن ثمّ فإنه يُنتظر أن يكون تعاطفهن المتحمس لاستعمال اللغة العربية ضعيفا. وبغياب مثل ذلك التعاطف مع اللغة الأم (اللغة العربية) عند أغلبية الأمهات التونسيات **تتضرر علاقة أطفالهن** ومن ثمّ علاقة الأجيال التونسية الصاعدة **باللغة العربية**، لغتهم الوطنية.

٨ – تؤكد كل المؤشرات السابقة حول علاقة التونسيات والتونسيين باللغة العربية وجود موقف/ اتجاه جماعي **يشوبه التحقير** لديهم إزاء اللغة العربية. يعتبر علم النفس الاجتماعي أن مثل ذلك الموقف هو **بوابة واسعة لبث** وغرس جذور ومعالم أمراض **مركبات النقص** عندهم.

٩ – كما رأينا، فإن دراسات العلوم الاجتماعية تُجمع على أن هناك علاقة وثيقة بين اللغة الوطنية/المحلية والهوية الجماعية للشعوب، كما وقع التأكيد على ذلك في مطلع هذا القسم من البحث. ومن ثم، فالإختلال في هاته العلاقة بين التونسيات و التونسيين واللغة العربية – كما تصفه تلك المؤشرات – هومصدر أساسي لخلق شخصية قاعدية أوهوية تونسية مرشحة **للتشويش للارتباك والاضطراب**. وبكل المقاييس، فإن جميع تلك المعالم السلبية نحواللغة العربية لاتجعل من حضوراللغة الفرنسية غنيمة للغة الضاد، كما يرى كاتب ياسين.

قراءة المؤشرات بعدسة العلوم الاجتماعية :

يرى فريق من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع أن ثقافة المجتمع (لغته، عاداته، قيمه، تقاليده الدينية، إلخ...) تؤثر تأثيرا كبيرا في تشكيل المعالم المميزة **للشخصية القاعدية** La Personnalité de Base لأفراد ذلك المجتمع. تساعد هذه الرؤية العلمية،مثلا، على تفسيراختلاف نماذج الشخصيات القاعدية لمجتمعات متجاورة جغرافيا.

مما لاشك فيه أن السلوكات اللغوية التونسية الواردة في المؤشرات السالفة الذكر هي معلم بارز من معالم ثقافة المجتمع التونسي المعاصر. وهذا يعني أن الإرث اللغوي الثقافي الاستعماري لا يزال يمثل واقعا رئيسيا متجذرا في ثقافة الحياة اليومية للتونسيات وللتونسيين، وذلك بعد أكثر من خمسة عقود من الاستقلال وبعد الثورة. وبعبارة أخرى، فإن ذلك **الإرث اللغوي الثقافي الاستعماري الفرنسي** أصبح **عنصرا أساسيا في تشكيل الشخصية القاعدية التونسية** لعهد الاستقلال، وذلك بسبب العلاقة الوثيقة بين الثقافي (اللغوي) والنفسي المشار إليها في مقولة علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع المعاصرين بخصوص تأثير العوامل الثقافية في بناء الشخصيات القاعدية للمجتمعات. ومن ثم، فاستمرارُ الإرث اللغوي الثقافي الاستعماري القوي يمثل أرضية صلبة لوجود واستمرار الحضور الملموس لمعالم **الاستعمار النفسي الخفي** الذي لا تدركه أو لا تود الاعتراف بوجوده أغلبية

التونسيات و التونسيين وذلك لسببين على الأقل: (١) أن هذا النوع من الاستعمار أصبح جزءا مكينا من التركيبة النفسية لشخصية الأفراد. إذن، لا يكاد هذا الوضع النفسي يسمح لهن ولهم بالنظر إليه عن بعد ومن ثمّ بكثير من الموضوعية. (٢) أن الاعتراف به عند القلة القليلة أمر مؤلم لمن يعايشه، إذ هو يُحدث إحراجات وتوترات وصراعات وانفصامات في شخصية الأفراد بسبب إزاحة الستار عن الوجه الآخر للطبيعة الحقيقية للاستعمار اللغوي الثقافي النفسي.

يساعد هذان العاملان على فهم وتفسير أسباب استمرار صمت أغلبية التونسيات والتونسيين قبل الثورة وبعدها حتى على مجرد طرح موضوع الاستقلال/التحرر اللغوي الثقافي. بينما نادوا **بالجلاءات الثلاثة الأخرى**: العسكري والسياسي والفلاحي، فنجحوا في تحقيقها. إن تحليل الباحث في هذه الدراسة يُعين على إدراك أسباب تبني التونسيات والتونسيين **لسياسة المكيالين** في مشروع الاستقلال والتحرر من الاستعمار الفرنسي برؤوسه الأربعة، إنها سياسة **تُبقي حتما استقلال المجتمع التونسي منقوصا**، وذلك في أهم جوانب استقلال وتحرر الشعوب ألا وهو التحرر/الاستقلال اللغوي الثقافي. وبالتأكيد، لاتقبل روح الموضوعية النظر إلى فقدان التحرراللغوي الثقافي على أنه غنيمة للمجتمع التونسي الذي سقط تحت نير الاستعمار الفرنسي لأكثر من سبعة عقود (١٨٨١ – ١٩٥٦).

إمكانية أن تكون اللغة الأجنبية غنيمة :

لا تسمح عينة الأمثلة السابقة بالقول بأن حضور اللغة الفرنسية (لغة المستعمر) في المجتمع التونسي في زمن الاحتلال وعهد الاستقلال يمثل غنيمة ربحها التونسيات والتونسيون من فرنسا. لأن **هناك شروطا أساسية يجب توافرها** قبل أن يصبح استعمال اللغة الفرنسية وغيرها من اللغات الأجنبية غنيمة حقيقية للمجتمع التونسي، وغيره من المجتمعات المغاربية التي احتلتها فرنسا. يقتصرصاحبُ الدراسة هنا على ذكر ثلاثة شروط رئيسية تؤهل اللغة الأجنبية لكي تكون غنيمة فعلية للمجتمع المستقبل لها :

(١) يحتاج المجتمع التونسي اليوم وفي المستقبل إلى **تغيير نمط الازدواجية اللغوية الثقافية** (عربية وفرنسية وثقافتهما) لصالح اللغة العربية وثقافتها لكي تصبح اللغة الفرنسية عنده فعلا غنيمة. فبهذا التغييرتصبح مكانة اللغة العربية وثقافتها على المستويين النفسي والاستعمال الاجتماعي هي الأولى عند التونسيات والتونسيين ومؤسساتهم. وهذا ما نجده اليوم مفقودا إلى حد كبيربالمجتمع التونسي بعد أكثرمن خمسة عقود من الاستقلال. والأمثلة كثيرة جدا على استمرار تحيز التونسيات والتونسيين ومؤسساتهم للغة الفرنسية وثقافتها، كما رأينا.

تبين الأمثلة والتحليلات السابقة مدى استمرار انتشارالتحيز للغة الفرنسية وثقافتها بين التونسيات والتونسيين بعد الثورة وقبلها. فالسلوكات التونسية اللغوية الـواردة في تلك الأمثلة تشيربوضوح بـأن اللغة العربية ليست هي اللغة الأولـى نفسيا واستعمالا اجتماعيا عند أغلبية التونسيات والتونسيين ومؤسساتهم. ويعود هذا الوضع عند التحليل إلى ما يسميه الباحثُ الإزدوجية اللغوية الثقافية المتحيزة إلى اللغة الفرنسية وثقافتها على حساب اللغة العربية وثقافتها في عهديْ الاستعماروالاستقلال. وهي ما أطلقَ عليها أعلاه مفهوم **الازدواجية اللغوية الأمارة**. فبدون تغيير هذا الموقف إيجابيا لصالح اللغة العربية وثقافتها عند التونسيات والتونسيين لايجوز موضوعيا اعتبار معرفة اللغة الفرنسية وثقافتها غنيمة كما قال كاتب ياسين. ويتطلب هذا الأمر **الرفع من شأن اللغة العربية وثقافتها** بحيث تصبح الرغبة والتعاطف نفسيا واجتماعيا مع استعمال اللغة العربية في المكانة الأولى عند الجمهور التونسي المتعلم والمثقف على الخصوص. وكما أُشير من قبل، فهذا ما يتصف به موقف الزيتونيين والتلاميذ التونسيين والتونسيات خريجي ما يسمى شعبة (أ) من التعليم التونسي المعرب في مطلع عهد الاستقلال من القرن الماضي.

وفي المقابل، فإن موقف الأغلبية من التونسيات والتونسيين خرجي المدارس الفرنسية والمدرسة الصادقية والنظام التعليمي التونسي المزدوج اللغة والثقافة لفترة ما بعد الاستقلال موقف/اتجاه متحيزنفسيا واجتماعيا أكثر لصالح لغة المستعمروثقافته. وبعبارة أخرى، إنه موقف يهيئ التونسيات والتونسيين للقبول والرضى باستمرار الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي. يرى عالم الاجتماع الماليزي الشهير سيد حسين العطاس أن هذا التكوين اللغوي الثقافي لصالح الطرف المهيمن يقود إلى بروزظاهرة ما سماه **بالعقل السجين** The Captive Mind بين أهل الطرف المهيمَن عليه (Alatas 1972). أما المفكرالجزائري المعروف مالك بن نبي فقد تحدث هوالآخرعن **حالة استعداد الشعوب للاستعمار**. وما من شك بهذ الصدد أن الازدواجية اللغوية الأمارة تسهل عملية استعداد تلك الشعوب نفسيا واجتماعيا لقبول استمرار الاستعمارالغوي الفرنسي بعد الاستقلال. وليس من المبالغة القول أن هذا الوضع هوالسائد اليوم ليس في المجتمع التونسي فحسب بل في بقية المجتمعات المغاربية التي احتلهاالمستعمرالفرنسي. يمثل هذا الوضع اللغوي ما أطلق عليه صاحبُ البحث مصطلح التخلف الآخر الذي يشيرإلى أن تلك المجتمعات المغاربية الأربعة لم تنجح بعدُ نفسيا وثقافيا واجتماعيا في تطبيع علاقتها بالكامل مع اللغة العربية/ لغتها الوطنية. أي أن اللغة العربية ليست لها المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات الأغلبية الساحقة خاصة بين أصحاب القرارالسياسي والمثقفين والمتعلمين في هذه المجتمعات، وذلك بعد عقود عديدة من الاستقلال. وبالتأكيد فإن استمرار انتشارظاهرة التخلف الآخراليوم في الأقطارالمغاربية تفند بكل شفافية مقولة كاتب ياسين: لغة المستعمر غنيمة حرب.

(٢) وكنتيجة لما ورد أعلاه يمكن القول أن المجتمع التونسي **يشكو من قصورفي تطبيع علاقته بالكامل مع اللغة العربية**، لغته الوطنية. إذن، فالمطلوب لإصلاح هذه الحالة أن يصبح استعمال اللغة العربية شاملا لكل القطاعات في

المجتمع التونسي، وليس مقتصرا على بعض القطاعات فقط كما هو الحال اليوم. فالمجتمعات المتقدمة، على سبيل المثال، نجدها ملتزمة بالكامل باستعمال لغاتها الوطنية في كل شؤونها، كما هو الأمر في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا واليابان وكوريا الجنوبية، وغيرها من المجتمعات المتقدمة.

(٣) أما الشرط الثالث ذو العلاقة بالشرطين السابقين فهو **موقف نفسي وفكري** يعطي اللغة العربية المكانة الأولى في قلوب وعقول جميع التونسيات والتونسيين بحيث يصبحون بطريقة عفوية جماعية كاسحة متحمسين للغيرة والدفاع عن اللغة العربية وحمايتها من التهميش والإقصاء من الاستعمال في قضاء شؤون الأفراد ومؤسساتهم بالمجتمع التونسي الحديث.

فالتحليل الموضوعي يؤكد أن غياب كسْب المجتمع التونسي لرهان تلك الشروط الثلاثة بطريقة كاملة يبقي استقلال المجتمع التونسي منقوصا في أهم معالم الاستقلال والمتمثل في التحرر الكامل من رواسب الاستعمار اللغوي الذي يجعل عقول التونسيات والتونسيين ومؤسساتهم سجينة كما أكد ذلك عالم الاجتماع سيد حسين العطاس. إذ تشير الدراسات إلى أن **العقول السجينة** هي عقول **ينقصها التأهل للابتكار والإبداع**، واكتشاف التصورات والحلول البديلة للأشياء المطروحة، انطلاقا من تراثها الفكري والعلمي والثقافي لهويتها الحضارية.

ومع استمرار غياب تلك الشروط الثلاثة بدرجات مختلفة بالمجتمع التونسي اليوم لايجوز بكل المقاييس اعتبار حضور اللغة الفرنسية غنيمة للتونسيات والتونسيين كما صرح بذلك تسرع شعار كاتب ياسين في القول «اللغة الفرنسية غنيمة حرب». ومن ثم، يمكن القول إن المجتمع التونسي فاقد كثيرا لأعز معالم الاستقلال من الاستعمار الفرنسي. ويمثل استرجاع التحرر اللغوي الثقافي الكامل **الاستقلال الثاني** في مسيرة المجتمع التونسي الحديث. وفي الختام، يتطلب كسب رهان الاستقلال الثاني مقاومة جادة تنشر **أولا** الوعي المكثف بضرورة التحرر اللغوي الثقافي بين التونسيات والتونسيين في كل الطبقات والقطاعات بالمجتمع

التونسي. **ثانيا**، يصعب أن تفوز تلك المقاومة بدون **اتخاذ قرارات سياسية** ملتزمة ومقاومة بالعمل والكفاح الملموس بالساعد والقلم لصالح اللغة العربية وثقافتها. ثالثا، وحتى تتوج كل جهود المقاومة بالفلاح والنجاح لابد من **تأسيس نظام تعليم جديد** تتصدر فيه اللغة العربية وثقافتها المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات التونسيات والتونسيين ومؤسساتهم، مع التفتح الملتزم والواسع على اللغات الأجنبية وثقافاتها وعلومها الحديثة على الخصوص. يمثل كل ذلك **أهم التحديات** التي سيقاس بها مدى **نجاح أو فشل مسيرة الثورة التونسية**.

لغات التدريس بالمجتمع التونسي :

يقع التدريس بلغتين رئيسيتين في المدارس والمعاهد والجامعات التونسية في عهدي الاحتلال الفرنسي والاستقلال، وهما اللغة العربية الفصحى، واللغة الفرنسية. كما تستعمل أيضا العامية العربية التونسية بطريقة واسعة للتدريس. كانت اللغة الفرنسية في مطلع الاستقلال لغة تدريس العلوم حتى في المدارس الابتدائية التونسية. ثم تم تبني **التعريب بالكامل للتعليم** حتى نهاية **المرحلة الإعدادية** في السنة التاسعة. وتستمر سياسة التعريب هذه حتى يومنا هذا. لكن وزارة التربية التونسية تبنت سياسة عودة **اللغة الفرنسية** كلغة تدريس العلوم ابتداء من **المرحلة الثانوية** حتى مراحل **التعليم العالي** في المعاهد والجامعات التونسية وما بعدهما، وبعبارة أخرى، فاللغة الفرنسية هي السيدة اليوم في تدريس العلوم للتلاميذ والطلاب التونسيين في أعزفترات حياتهم لاكتساب المعارف العلمية من الأساتذة التونسيين وبعض الأساتذة الأجانب على حد سواء. ونظرا لهيمنة مفاهيم ونظريات العلوم الغربية في برامج تعليم العلوم، فإن دراستها باللغة الفرنسية فقط ينتظرمنها أن تزيد في انصهار المدرسين والتلاميذ والطلبة التونسيين في بوتقة الثقافة العلمية الغربية، الأمر الذي قد يؤدي إلى آثارسلبية على ما يسميه صاحبُ الدراسة **مناعة هويتهم العربية**.

أما التدريس الكامل باللغة العربية الفصحى، للآداب وللعلوم الإنسانية والاجتماعية فهو ظاهرة محدودة جدا في كل مراحل التعليم إذ طالما يلوذ المدرسون والتلاميذ

والطلاب لاستعمال العامية العربية التونسية الممزوجة بعديد الكلمات والجمل الفرنسية بحيث يجوز وصفها بأنها **عامية الفرونكوأراب** Le franco-arabe. فإقصاء الفصحى شبه الكامل كلغة تدريس وتعويضها بالعامية العربية التونسية المفرنسة/ الفرونكو أراب وهيمنة اللغة الفرنسية كلغة تدريس العلوم وحتى العلوم الإنسانية والاجتماعية أحيانا في المعاهد العليا والجامعات التونسية ساهم ميدانيا في خلق **موقف فاتر** وغير متحمس نحومشروع التعريب الشامل في المجتمع التونسي بعد الاستقلال. ويحتاج هذا الأمر إلى الفهم والتفسيرمن خلال منظور العلوم الإنسانية والاجتماعية، كما يسعى هذا البحثُ إلى إبرازه في جزئيه الثاني والثالث.

النظام التربوي التونسي ودوره في وضع اللغة العربية :

لابد للباحث الاجتماعي اللغوي the sociolinguist أن يطرح عدة فرضيات لفهم وتفسير هذا الموقف الفاتر الذي يتصف به التونسي المتعلم إزاء اللغة العربية: لغته الوطنية.

إن **الفرضية الأولى** : التي ترشح نفسها بقوة هنا هي: ما هو دور المدارس والمعاهد والجامعات التونسية في غرس حب اللغة العربية والاعتزاز بها أو فقدانهما؟ إذ التونسي يتعلم اللغة العربية الفصحى في هذه الفضاءات التربوية مثلما يتعلم اللغات الأجنبية مثل الفرنسية والإنجليزية. فالملاحظات الميدانية المتكررة تشير إلى أن التونسي المتعلم يولي عموما، بطريقة شبه اللاشعورية، مكانة أعلى لهاتين اللغتين على حساب اللغة العربية الفصحى. فهل يساهم فعلا **النظام التربوي التونسي** في بث هذا الموقف المتقاعس الشائع إزاء اللغة العربية لدى التونسيين المتعلمين؟

الفرضية الثانية : تشير الملاحظات أن إطار التعليم التونسي (المعلمين وأساتذة التعليم الأساسي والثانوي والجامعي) المزدوج اللغة والثقافة في كل مراحل التعليم **غير قادر** في أغلبيته الساحقة على التحمس بعفوية واستمرار للغة العربية. وكما سنرى لاحقا، ينتشر هذا الاتجاه حتى لدى أطر التعليم التونسية ذات الازدواجية اللغوية المتزنة (في معرفة اللغتين العربية والفرنسية) مثل خريجي

المدرسة الثانوية الصادقية لفترة ما قبل الاستقلال، وأغلبية خريجي التعليم التونسي لما بعد الاستقلال. إذ يغلب على معظم هؤلاء تحيز لصالح اللغة الفرنسية وثقافتها على حساب اللغة العربية وثقافتها. هل يعود ذلك الموقف/الاتجاه بين المتعلمات والمتعلمين التونسيين إزاء اللغة العربية إلى الازدواجية اللغوية الثقافية المتأثرة بالعامل الاستعماري، أو بإيديولوجيا القيادات السياسية والمثقفين والمتعلمين التونسيين لما بعد الاستقلال أم هما معا؟.

الفرضية الثالثة : هل مجرد حضور الازدواجية اللغوية الثقافية يؤدي في حد ذاته إلى تحقير وتهميش اللغة الوطنية/المحلية في كل المجتمعات البشرية؟ والإجابة القاطعة هي بالطبع لا. تؤكد صحة هذه الأمثلة المتعددة من المتعلمين المزدوجي اللغة والثقافة في كل من ألمانيا والسويد وإسبانيا وماليزيا وحتى مقاطعة كيباك بكندا. أي أن المتعلمين المزدوجي اللغة والثقافة في هذه المجتمعات يعتزون بطريقة تلقائية بلغتهم الوطنية، ويدافعون عنها، ويستعملونها في المقام الأول في مجتمعاتهم، ويعرّفون هويتهم بواسطة لغتهم الوطنية، كما رأينا سابقا. وبعبارة أخرى، فعلاقة هذه المجتمعات ومتعلميها بلغاتهم الوطنية/المحلية هي علاقة عضوية وطبيعية وسليمة.

علاقة التونسيات و التونسيين بلغتهم الوطنية :

ومما سبق ذكره، يمكن القول اليوم بأن علاقة التونسي المتعلم – صاحب الازدواجية اللغوية الثقافية المتزنة أو غيرالمتزنة لصالح اللغة الفرنسية – باللغة العربية **ليست بالعلاقة العضوية الطبيعية السليمة**. فذلك التونسي ضعيفُ وازع الاعتزاز بها، وهو لايزال يهمش استعمالها في شؤون حياته حتى في البسيط منها. وهذا عامل قوي وحاسم في إرباك هوية الأفراد والمجتمعات كما تشهد بذلك بعض بحوث العلوم الاجتماعية الحديثة (Ruano-Boballan ، 1998 : 270-282). ستتجلى أسباب ذلك في بقية صفحات هذا القسم من البحث.

لا يسعى الباحث الاجتماعي الدارس لمكانة اللغة العربية اليوم في المجتمع التونسي إلا أن يتعرف عن قرب على **دور النظام التربوي** لفترتي ما قبل وما بعد

الاستقلال في فهم وتفسير المكانة المهمشة للغة العربية عند المتعلمات والمتعلمين التونسيين المزدوجي اللغة والثقافة المنتمين إلى أصناف ثلاثة من الازدواجية اللغوية في عهد الاستعمار الفرنسي:

١ – التعليم الزيتوني المعرب لغة والإسلامي ثقافة.

٢ – التعليم الصادقي ذو الازدواجية اللغوية المتزنة نسبيا لأن للغة الفرنسية، كلغة تدريس وثقافة، الهيمنة على مدرسي وخريجي المدرسة الصادقية.

٣ – التعليم ذوالتكوين الفرنسي لغة وثقافة والمسمى بالفرنسية (Mission) أي تعليم البعثات الفرنسية الذي تخرج/يتخرج فيه الكثيرمن التونسيات والتونسيين. وهونظام تعليم تشرف عليه البعثات الفرنسية الساعية لفرنسة لغة وثقافة التونسيين ونشر الدين المسيحي بينهم خاصة في العهد الأول لمرحلة الاستعمارالفرنسي.

فمن وجهة نظر تحليلية سوسيولوجية، لا يُنتظر من المتعلمات والمتعلمين التونسيين بهذا الصنف الأخير من التعليم أن يكون لهم شعور قوي بالاعتزاز باللغة العربية وثقافتها أو تحمس وغيرة للدفاع عنهما. بل تفيد الملاحظات الميدانية المتكررة وجود عكس ذلك بينهم والمتمثل في موقف يتراوح في الغالب بين الاحتقار والعداء السافر للغة العربية وثقافتها، الأمر الذي أدى/ يؤدي إلى تجلي **حالة من الاغتراب** aliénation عند هؤلاء المتعلمات والمتعلمين التونسيين إزاء لغتهم وثقافتهم الوطنيتين (Ruf, 1974 : 233-79). وليس من الصعب، من وجهة نظر المختصين في العلوم الاجتماعية، فهم وتفسير حالة الاغتراب هذه. فمن جهة، لا يعطي تعليم البعثات الفرنسية بطريقة شبه كاملة للمتعلمات وللمتعلمين التونسيين فرصة لتعلم اللغة العربية الفصحى. **واللغة** – كما رأينا في الإطارالفكري في القسم الأول من هذا البحث – **هي أم الرموز الثقافية جميعا**. فإن حدوث القطيعة والجفاء والاغتراب بين هؤلاء المتعلمات والمتعلمين التونسيين ولغتهم العربية هو بالتأكيد

عامل ذو تبعات خطيرة على حضور واستمرار تماسك بقية عناصر منظومة الرموز الثقافية الأصيلة والوطنية للمجتمع التونسي وما يمكن أن يكون لذلك من أثر، مثلا، على **إرباك الانتساب للهوية العربية** لدى هؤلاء المتعلمات والمتعلمين التونسيين. ومن جهة ثانية، فإن تعلم التونسيين للغة الفرنسية وثقافتها في كل من نظام تعليم البعثات الفرنسية ونظيره الصادقي تم أيضا في ظروف الهيمنة الاستعمارية الفرنسية على المجتمع التونسي. أي أن العلاقة بين الطرفين كانت **علاقة بين غالب ومغلوب** «فالمغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب»، كما يقول ابن خلدون. وكنتيجة لهذا الوضع، تفيد الملاحظات الميدانية أن المستعمر الفرنسي قد نجح، إلى حد كبير، في **بث عقلية الاحتقار للغة العربية وثقافتها** بين خريجي هذين الصنفين من التعليم التونسي في عهد الاستعمار. وبالطبع، فالموقف/ الاتجاه التحقيري للغة العربية وثقافتها هو أسوأ بكثير عند التونسيين الذين درسوا في نظام تعليم البعثات الفرنسية وما شابهه. وتؤكد أيضا الملاحظة الميدانية اليوم أن **رصيد موروث هذه العقلية التحقيرية للغة العربية** وثقافتها لايزال منتشرا كثيرا بين الأجيال الجديدة للمتعلمات وللمتعلمين التونسيين، وذلك بعد أكثر من نصف قرن من الاستقلال .

أما موقف التونسيين الذين درسوا في جامع الزيتونة فيغلب عليه الاعتزاز باللغة العربية وثقافتها والغيرة والحماس للدفاع عنهما قبل الاستقلال وبعده. كما يلاحظ أن خريجي النظام التعليمي الزيتوني هم أيضا **الأقوى انتماءً إلى الهوية العربية الإسلامية** بين المتعلمات والمتعلمين التونسيين قبل الثورة وبعدها. ويتفق هذا مع الرؤية النظرية لعلمي الاجتماع والأنثروبولوجيا، من ناحية، والمعطيات الميدانية، من ناحية أخرى (الذوادي، ١٩٩٥).

فمن وجهة نظر العلوم الاجتماعية، إن تلك الفروق في اتجاهات/مواقف المتعلمات والمتعلمين التونسيين إزاء اللغة العربية تعود في المقام الأول إلى نوعية عملية **التنشئة الرموزية الثقافية التعليمية** التي تلقوها في نظم التعليم التونسية التي درسوا فيها والمشار إليها في هذا البحث. فهؤلاء المتعلمات والمتعلمون كلّهم

تونسيون ينادي دستور بلادهم في أول بنوده بوضوح بأن اللغة العربية هي لغتهم الوطنية التي يجب – باعتبارها لغتهم الأولى – أن تحظى عندهم باحترام كبير جدا. فالسبب في ضعف علاقتهم باللغة العربية لابد أن يرجع أساسا إلى التنشئة الرموزية الثقافية للمدارس والمعاهد والجامعات التي درس فيها هؤلاء، كما يتجلى ذلك الاختلاف، مثلا، في منظومات الرموز الثقافية للنظام التعليمي الزيتوني والنظام المزدوج واللغة والثقافة والنظام التعليمي المفرنس كما ذُكر سابقا. وهذا ما يؤكده مفهوم الرموز الثقافية المطروح في القسم الأول في هذا البحث. والمفهوم يرى أن الرموزالثقافية هي المحدد الحاسم لسلوكات الناس ومواقفهم؛ لأنها هي العمود الفقري في تشكيل مواقف/اتجاهات الأفراد والجماعات والمجتمعات.

مواقف خريجي نظم التعليم من اللغة العربية :

وللتفصيل أكثر في مسألة التنشئة الرموزية الثقافية يحلّل الآن صاحب البحث أسباب الفروق بين الأصناف الثلاثة من المتعلمات والمتعلمين التونسيين إزاء اللغة العربية وثقافتها، من ناحية، والانتماء إلى الهوية العربية الإسلامية، من ناحية ثانية. يتساوى كل هؤلاء المتعلمات والمتعلمين في كون أن جميعهم ذهبوا إلى الدراسة في العهد الاستعماري، لكنهم يختلفون شديد الاختلاف في لغات التدريس والثقافة. ويتضح هذا بأكثر قوة في المقارنة بين تعليم الزيتونيين ونظرائهم التونسيين في تعليم البعثات الفرنسية. فبينما تسيطر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية على التكوين التعليمي لخريجات ولخريجي جامع الزيتونة وفروعه، فإن اللغة الفرنسية وثقافتها هما المهيمنتان على التكوين التعليمي للتونسيات وللتونسيين الذين درسوا في مدارس البعثات الفرنسية. لكن وجود المستعمر الفرنسي في القطر التونسي لا يبدو أنه أثر على اعتزاز المتعلمات و المتعلمين الزيتونيين باللغة العربية وثقافتها وبالانتساب المتين للهوية العربية الإسلامية. يوحي هذا الواقع بأن التجذر في اللغة العربية وثقافتها **قد حمى بقوة** المتعلمات والمتعلمين الزيتونيين من أعراض الارتباك في انتمائهم للهوية العربية الإسلامية ومن معالم الجفاء والاحتقار للغة

العربية وثقافتها. وفي المقابل، فإنه يلاحظ على المتعلمات والمتعلمين التونسيين خريجي تعليم البعثات الفرنسية ليس فقدانهم لشعور الاعتزاز باللغة العربية وثقافتها فقط، بل الشعور بالاغتراب وحتى العداوة لهما أحيانا. ولابد أن يكون لذلك انعكاسات سلبية على الانتماء القوي غير المتذبذب للهوية العربية الإسلامية عند هذا النوع من المتعلمات والمتعلمين التونسيين في عهدي الاستعمار والاستقلال. وكما بيّن الباحثُ من قبل، فاللغات الوطنية / المحلية تأتي في المقام الأول بالنسبة لتحديد هويات الشعوب كما تشهد بذلك هويات أفراد المجتمعات الأوروبية مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال. ويتفق هذا مع كل من **مركزية اللغة** في منظومة صاحب الدراسة للرموز الثقافية وبحوث علم الاجتماع على الخصوص كما ورد في القسم الأول لهذه الدراسة. فاللغة في منظوره هي أم الرموز الثقافية جميعا، أي أنها تحتل بدون منافس **مركز الثقل** في منظومة الرموز الثقافية: اللغة والعقيدة والفكر والمعرفة / العلم والقوانين والأساطير والقيم والأعراف الثقافية... فالمتعلمات والمتعلمون التونسيون الدارسون في مدارس البعثات الفرنسية في العهد الاستعماري يتعلمون في المقام الأول اللغة الفرنسية، ومن ثم الفكر والتاريخ والمعرفة والعلم والقوانين والقيم والأعراف الثقافية الفرنسية، ولا يتعلمون في أحسن الأحوال إلا النزر القليل من اللغة العربية والفكر والتاريخ والعلم والمعرفة والقوانين والقيم والأعراف الثقافية من الحضارة العربية الإسلامية. وبتعبير العلوم الاجتماعية، فإن هؤلاء التونسيات والتونسيين قد تعرضوا إلى **تنشئة اجتماعية** socialisation مكثفة في منظومة الرموز الثقافية للمستعمر الفرنسي.

أما الموقف العام **لخريجي المدرسة الصادقية** ذوي الازدواجية اللغوية المتزنة من اللغة العربية والانتماء للهوية العربية الإسلامية فهو «**موقف/اتجاه البين بين**». أي أنهم ليسوا بشديدي التحمس والدفاع عن اللغة العربية والهوية العربية الإسلامية مثل الزيتونيين ولا هم يشكون من قوة علاقة الجفاء والاغتراب مع اللغة العربية، وضعف الانتساب إلى الهوية العربية الإسلامية، كما هو الأمر عند المتعلمات والمتعلمين التونسيين خريجي نظام تعليمي البعثات الفرنسية. وبعبارة أخرى، فإنه يمكن وصف

موقف/اتجاه المتعلمات و المتعلمين الصادقيين من اللغة العربية والهوية العربية الإسلامية بأنه موقف يغلب عليه التذبذب. إذ يلاحظ على أغلبيتهم تحيز أكبر إلى صالح اللغة والثقافة الفرنسيتين. **فلا يكاد يوجد بينهم** من يتحمس ويدافع ويغار في المقام الأول بكل تلقائية وقوة على اللغة العربية وثقافتها. وتفيد الملاحظات الميدانية المتكررة بهذا الصدد بأنه يمكن القول إن الصادقيين الذين يتحمسون ويدافعون ويغارون على استعمال اللغة الفرنسية وثقافتها في المجتمع التونسي **هم أكثر بكثير** من الصادقيين الذين يتبنون نفس هذا الموقف بالنسبة للغة العربية وثقافتها الوطنيتين. وهذا ما ينبغي أن يفسر أيضا طبيعة **تحالف الصادقيين** مع بقية المتعلمات والمتعلمين التونسيين الأكثر تفرنسا لغة وثقافة ضد الزيتونيين بالمجتمع التونسي المعاصر. تشير الدلائل بوضوح إلى أن تقارب الصادقيين وتحالفهم مع المتعلمات والمتعلمين التونسيين خريجي نظام تعليم البعثات الفرنسية أقوى بكثير من تقاربهم وتحالفهم مع الزيتونيين. أي أن التعليم الصادقي ذا الازدواجية المتزنة والإيديولوجيا الغربية لايسمح عموما لأصحابه بتبني اتجاه أكثر تعاطفا مع الزيتونيين.

لا يصعب تفسير موقف الصادقيين ضعيف الحماسة والاعتزاز باللغة العربية وثقافتها، وذلك بسبب عامل تكوينهم التعليمي المزدوج اللغة وثقافتها. إذ كان ينظر إلى تعليمهم على أنه **مثالي** في الازدواجية اللغوية والثقافية المتزنة مما يجعل الصادقيين ذوي موقف متساوي التحمس والاعتزاز على مستويي طرفي ازدواجيتهم اللغوية والثقافية (عربية وفرنسية). وكما رأينا، فتكوينهم التعليمي ينتمي في واقع الأمر إلى الازدواجية المتزنة التي **تتفوق فيها اللغة الفرنسية** وثقافتها على اللغة العربية وثقافتها.

وللتفصيل في هذا الأمر، يمكن ذكر وجود عامليْن كان لهما التأثير على موقف الصادقيين المتحيز أكثر إلى اللغة والثقافة الفرنسيتين. يتمثل الأول في القول بأن طرفي الازدواجية في التعليم الصادقي لم يكونا أصلا متساوييْن بالكامل فعلا، كما بيّن صاحب البحث سابقا. أي أن معرفة خريجي المدرسة الصادقية في اللغة الفرنسية وثقافتها كانت

أقوى من معرفتهم في اللغة العربية وثقافتها. تسهل هذه المعطيات فهم وتفسير تحيز الصادقيين الأكبر للغة الفرنسية وثقافتها . أما العامل الثاني المرشح للتأثير على موقف الإعجاب والانبهار لدى الصادقيين باللغة والثقافة الفرنسيتين فهو **عامل الاستعمار**. والصادقيون حتى إن كان نظام تعليمهم مثاليا في القرب من الازدواجية اللغوية والثقافية المتزنة، فإنهم **كانوا يزاولون دراستهم في عهد الاحتلال الفرنسي لبلدهم**. وبالتعبير الخلدوني، فقد كانوا في موقع المغلوب المولع بتقليد الغالب بما في ذلك في لغته وثقافته اللتين نجح المستعمرالفرنسي في نشر دعوته الإيديولوجية بين الصادقيين والمتعلمات والمتعلمين التونسيين في مدارس البعثات الفرنسية بأن اللغة الفرنسية وثقافتها هما أكثر رقيا وتحضرا من اللغة العربية وثقافتها.

وهكذا وُلدتْ بين هذين الصنفين من المتعلمات والمتعلمين التونسيين **علاقة غير سليمة** مع لغتهم وثقافتهم العربيتين الوطنيتين. علاقة تتراوح، من جهة، بين شعور متعلمات ومتعلمي البعثات الفرنسية بالاغتراب والجفوة وحتى العداء إزاء اللغة العربية وثقافتها، ومن جهة ثانية، حضور الموقف الفاقد للتحمس والغيرة والمتذبذب في معظم الحالات إزاء مشروعية احترام مكانة اللغة العربية وثقافتها عند المتعلمات والمتعلمين الصادقيين، وهو موقف نجح هؤلاء في نشره بعد الاستقلال بين سواد الشعب التونسي، وخاصة المتعلمات والمتعلمين منهم. إذ الصادقيون وخرّيجو التعليم المفرنس يمثلون **الأغلبية التي قادت إدارة المجتمع التونسي بعد معركة التحرير** من فرنسا في ١٩٥٦. ومن ثم، يجوز القول إن استمرار موقف/ اتجاه الترحيب الشعبي التونسي الواسع باللغة الفرنسية وثقافتها بعد الاستقلال يتفق مع القول الشائع: **الناس على دين ملوكهم.**

لغة الضاد في المجتمع التونسي بعد الاستقلال :

١- في النظام التربوي :

تغيرت إيجابيا وضعية اللغة العربية على مستوى الاستعمال في المجتمع التونسي المستقل منذ ١٩٥٦. فعُرّب التعليم الابتدائي والإعدادي بالكامل. أي أن

التلميذ التونسي يتعلم في هاتين المرحلتين كل مواد دراسته باللغة العربية ويتعلم الفرنسية والإنجليزية (في المرحلة الإعدادية) كمجرد لغتين أجنبيتين. لكن **يُفاجأُ التلميذ التونسي** في مرحلة التعليم الثانوي بغياب استعمال أساتذته للغة العربية في تدريسه الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية. فيصبح يدرس كل هذه المواد باللغة الفرنسية. ويرى الكثيرون أن لهذا التغيير المفاجئ انعكاسات بيداغوجية سلبية على تعلم التلميذ التونسي وآثارا نفسية ليست في صالح علاقته باللغة العربية، لغته الوطنية (Grosjean 1982 :120-121).

أما على المستوى الجامعي **فلا تستعمل اللغة العربية كلغة تدريس** في الجامعات والكليات والمعاهد العليا التونسية التي تدرس العلوم الطبيعية والفيزياء والكيمياء والرياضيات وغيرها من العلوم الحديثة، بل تدرس هذه العلوم بلغة موليار. ويمثل غياب تدريس كل تلك العلوم باللغة العربية امتدادا طبيعيا لفرنسة تدريس العلوم الذي بدأ في المرحلة الثانوية، كما رأينا. ولا يعني هذا بأي حال من الأحوال أن مقررات العلوم الاجتماعية والإنسانية، مثلا، تدرس بالضرورة باللغة العربية في الجامعات والكليات والمعاهد العليا التونسية. فمن ناحية، **ليس هناك قوانين** في تلك المؤسسات تجبر أعضاء هيئة التدريس على استعمال اللغة العربية في تدريس الطلبة مقررات العلوم الاجتماعية مثل علم النفس والاجتماع والتاريخ والجغرافيا. أي أن اختيار لغة التدريس (عربية أو فرنسية) هو في المقام الأول اختيار الأستاذ المدرس. ومن ناحية أخرى، عرفت المؤسسات الجامعية التونسية منذ سنوات **تراجعا في عملية التعريب** بالنسبة لتدريس مقررات العلوم الاجتماعية والإنسانية بحيث أصبح الطلبة ملزمين بتحرير أجوبة امتحاناتهم وكتابة بحوثهم باللغة الفرنسية في المقررات التي يدرسونها باللغة الفرنسية، بينما كان لهم الحق سابقا في استعمال اللغة العربية إذا شاءوا (القاسمي، ٢٠٠٣ : ٤-٢٥).

يشير هذا التشخيص الوصفي الموجز **لوضع استعمال اللغة العربية** في المؤسسات الجامعية التونسية بأنها **لا تتمتع بالمكانة الأولى عند**

الأساتذة وطلبتهم باعتبارها لغة وطنية، كما هو سائد في المؤسسات الجامعية في المجتمعات المتقدمة والكثير من المجتمعات النامية حيث تتبوأ اللغة الوطنية الصدارة في استعمالها في التدريس، وفي بقية الأنشطة المعرفية والعلمية الجارية في تلك المؤسسات الجامعية. إن غياب قوانين في المؤسسات الجامعية التونسية تعطي اللغة العربية حقها في أن تكون لغة التدريس الأولى – باعتبارها اللغة الوطنية – وفقدان قوة الشعور بالاعتزاز والاحترام والتحمس نحو اللغة العربية بين الأساتذة الجامعيين وطلابهم **يهمشان فعلا موقع اللغة العربية** على كل من المستوى المؤسساتي الجامعي والجانب النفسي للأساتذة الجامعيين وطلبتهم إزاء اللغة العربية. وهو وضع يتناقض وطنيا وموضوعيا مع ما ينبغي أن تحظى به اللغة الوطنية لدى مؤسسات وأفراد المجتمع ذي السيادة الكاملة في مجال التحرر اللغوي والقطيعة مع استمرار تركة التبعية للاستعمار الفرنسي في أخطر التبعيات جميعا.

٢ – النخب السياسية واللغة العربية :

تولى الزعيم الحبيب بورقيبة رئاسة البلاد التونسية بعد الاستقلال لفترة تزيد على ثلاثة عقود (١٩٥٦–١٩٨٧) هيمن فيها التونسيون أصحاب الازدواجية اللغوية الثقافية المتزنة (الصادقيون) وذوو تعليم البعثات الفرنسية على أهم مراكز السلطة والمسؤولية في المجتمع التونسي المستقل الحديث (عبدالسلام، ١٩٩٤: ٩٥). فنادرا جدا أن أُسْندت في العهد البورقيبي مناصب وزارية أو مناصب أخرى عالية في المؤسسات الوطنية إلى خريجي جامع الزيتونة، وجامعات الشرق الأوسط، أصحاب التعليم المتين في اللغة العربية والعقيدة الإسلامية وثقافتهما. وبعبارة أخرى، فالتونسيون أصحاب التعليم اللغوي والثقافي العربي الإسلامي تعرضوا / يتعرضون إلى عملية إقصاء من المناصب العالية والقيادية في المجتمع التونسي الحديث. ويجوز وصف وضعهم بأنهم ضحية لتمييز لغوي ثقافي سلبي لا إلى تمييز عنصري عرقي ولوني. فمن الناحية الموضوعية، إن لذلك التمييز اللغوي الثقافي السلبي انعكاسات خطيرة على مستويات الوطنية والاستقلال والعدالة الاجتماعية في المجتمع التونسي بعد الاستقلال وبعد

الثورة. فاستمرار الموقف التحقيري نفسيا واجتماعيا للغة والثقافة الوطنيتين عند أغلبية التونسيات والتونسيين والمثقفات والمثقفين والمتعلمات والمتعلمين لفترة ما بعد الاستقلال هو بالتأكيد موقف في الاتجاه المعاكس لكسب مشروعية رهان الهوية العربية والاستقلال الحقيقيين للمجتمع التونسي الحديث . فبدل أن يحظى هؤلاء التونسيون المعربون لغة وثقافة بالترحيب والتعيين في أهم المناصب والمسؤوليات للحكومات التونسية المتعاقبة في عهد الاستقلال، نجدهم يلقون الإقصاء من تلك المناصب والمسؤوليات في غالب الأحيان لمجرد تكوينهم التعليمي العربي الإسلامي المتجذر في أهم عنصرين مكونين للهوية الجماعية التونسية:اللغة العربية والثقافة الإسلامية. ويمكن القول من الناحية العلمية الموضوعية لهوية الشعب التونسي إنها مفارقة فجة أن يُعامل أصحابُ أهم مكونين للهوية الوطنية الجماعية التونسية معاملة تحط من شأن أبرز أسس الهوية الوطنية التونسية (اللغة العربية والدين الإسلامي وثقافتهما) وتعرضها من ثمّ إلى التهميش والتحقير وحتى إلى النكران. فيجوزالقول بهذا الصدد: إنها سلوكات حكومية رسمية ومجتمعية واضحة لما أطلق عليه الباحثُ مفهوم التخلف الآخر (الذوادي، ٢٠٠٢). وتلك في نهاية المطاف سياسة صريحة وشفافة بالنسبة لفقدان ممارسة المساواة والعدالة الاجتماعية (المواطنة) مع المتعلمين التونسيين الأكثر تجذرا وارتباطا بأهم المكونات الرئيسية (اللغة العربية والثقافة الإسلامية) للشخصية الوطنية التونسية وللهوية الجماعية التونسية. ويجوزالنظربهذا الصدد إلى فوزحزب حركة النهضة في انتخابات ٢٣ أكتوبر٢٠١١ بالمجتمع التونسي بأنه يمثل سابقة سياسية في تاريخ تونس الحديث. فلأول مرة منذ الاستقلال يتصدر النهضويون المنادون بقوة بهوية تونس العربية الإسلامية المشهد السياسي في الحكم وإدارة شؤون البلاد والعباد. وهو حدث مرشح لتغيير المجتمع التونسي لصالح الهوية العربية الإسلامية وإقامة نظام تعليم تربوي تتخرج فيه أجيال تونسية جديدة تحترم بوعي ونضج وعقلانية هويتها الدينية، وتستعمل اللغة العربية كلغة وطنية في شؤنها الشخصية، وفي إدارة كل قطاعات المجتمع.

مواقف/اتجاهات المجتمعات نحو لغاتها الوطنية :

وختاما للتشخيص السابق لعلاقة المجتمع التونسي باللغة العربية، لغته الوطنية، تود الدراسة إنهاء هذا الجزء من البحث بتحليل فكري مقارن يساعد على **قراءة شبه كمية وبيانية** لوضع اللغة العربية اليوم في البلاد التونسية.

يعلن دستور الجمهورية التونسية لعام ١٩٥٩ في أول فصوله بأن «تونس دولة حرة مستقلة ذات سيادة، الإسلام دينها **والعربية لغتها** والجمهورية نظامها» (دستور الجمهورية التونسية، ١٩٩٨: ٧). فواضح مما ورد في هذا البند من الدستور التونسي أن القيادة السياسية التونسية الجديدة بعد الاستقلال بقيادة الرئيس الحبيب بورقيبة تؤكد أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية أو الوطنية للمجتمع التونسي المستقل. ويعني هذا الإقرار أن تكون له التزامات أخلاقية وقانونية وعملية نحو اللغة العربية لكي تكون فعلا لغته الوطنية بحيث تصبح العلاقة بينهما **علاقة عضوية حميمية**. ولتعرف طبيعة تلك العلاقة بين المجتمع التونسي واللغة العربية يقوم الباحث بمقارنتها بنظيراتها في المجتمعات صاحبة السيادة اللغوية الكاملة.

تفيد الملاحظات الميدانية اليوم في المجتمعات المتقدمة بالتحديد بأن لغاتها الرسمية / الوطنية تتمتع فيها بالمواصفات الرئيسية الآتية:

١ – الاستعمال الكامل لها على المستويين الشفوي والكتابي.
٢ – الاحترام لها، والاعتزاز بها، والغيرة عليها، والتحمس للدفاع عنها.
٣ – معارضة استعمال لغة أجنبية بين مواطني تلك المجتمعات.
٤ – شعور عفوي قوي لدى المواطنين بالأولوية الكبرى التي يجب أن تنفرد بها اللغة الوطنية في الاستعمال في مجتمعاتهم.
٥ – إحساس قوي ومراقبة واسعة لدى المواطنين لتحاشي استعمال الكلمات الأجنبية، وسياسات لغوية وطنية لترجمة المصطلحات والكلمات الأجنبية الجديدة إلى اللغة الوطنية.

٦ – تمثل اللغة الوطنية العنصر الأبرز لتحديد هويات الأفراد والمجتمعات، كما رأينا في مجتمعات الاتحاد الأوروبي.

خريطة علاقة التونسيات والتونسيين باللغة العربية :

إذا تبنينا تلك المواصفات الست لقياس موقف/اتجاه التونسيين اليوم نحو اللغة العربية لوجدنا أن **موقفهم ضعيف** على كل واحدة من هذه المواصفات:

١– فعلى المستوى الشفوي، يمزج التونسيون كثيرا حديثهم بكلمات وجمل وعبارات فرنسية: الفرونكو أراب le franco-arabe. وربما يجوز القول بأن أغلبيتهم تستعمل في المعدل كلمة فرنسية على الأقل في كل عشر كلمات (١٠/١) من حديثها بالعامية التونسية. وبتعبير العلوم الاجتماعية، **فالفرونكو أراب** تمثل المعيار اللغوي الاجتماعي. أي أن حديث التونسية أوالتونسي مع التونسيين بلهجة تونسية عربية خالية تماما من أي كلمة فرنسية يُنظر إليه من طرف معظمهم على أنه ضرب من السلوك اللغوي المنحرف (Schur,1980) الذي طالما يقابل بالتعجب والحيرة **وحتى التهكم والسخرية**، كما وقع ذكره من قبل.

أما استعمال اللغة العربية في الكتابة، فهو لايزال محدودا في الأمور الكبيرة والصغيرة. فمعظم التونسيين يكتبون، مثلا، صكوكهم المصرفية باللغة الفرنسية. واللغة العربية غائبة في العديد من المؤسسات التونسية الحديثة. فاللغة الفرنسية، كما رأينا، هي لغة العلوم في المؤسسات التعليمية التونسية ابتداء من مرحلة التعليم الثانوي وانتهاء بمرحلة الدراسات الجامعية العليا. وكذلك فإن اللغة الفرنسية تبقى لغة الكتابة لأنشطة جل البنوك التونسية ولغة المراسلات الدورية مع عملائها.

٢ – تشير الاستبانات والملاحظات المباشرة المتكررة للسلوكات اللغوية للمتعلمين التونسيين بعد الاستقلال ١٩٥٦ بأن **أغلبيتهم الساحقة** لا تكاد تبدي بعفوية وارتياح حماسا واعتزازا باللغة العربية باعتبارها لغتهم الوطنية. يفسرعلم النفس

الاجتماعي المهتم بدراسة مواقف الناس (Johada Warren, 1966) بأن ذلك السلوك اللغوي يقترن عند هؤلاء التونسيين **بغياب الموقف/الاتجاه القوي** المدافع بعفوية والغيور في السر والعلن على اللغة العربية. وبعبارة أخرى، فلا يكاد يوجد عندهم في أحسن الأحوال أكثر من **شعور** فاتر لصالح اللغة العربية.

٣ – **لا يعارض** ومن ثمّ لا يحظُر المتعلمون التونسيون اليوم على أنفسهم استعمال اللغة الفرنسية بينهم في الشؤون الصغيرة والكبيرة التي يقومون بها في مجتمعهم، بل نجد الكثير منهم يرغبون ويفتخرون بذلك.

٤ – **لا يلاحظ** الباحث الاجتماعي اليوم لدى أكثر المتعلمين التونسيين إتجاها قويا ومتحمسا ينادي ويعمل فعلا على **إعطاء اللغة العربية الأولوية الكبرى** في الاستعمال في كل قطاعات المجتمع التونسي بما فيها القطاعات العصرية.

٥ – أما **هاجس مراقبة النفس** لتجنب استعمال الكلمات الفرنسية/الأجنبية فهو **أمر مفقود** عندهم. ولعل ازدياد انتشار ظاهرة الفرونكوأراب بينهم اليوم هو مؤشرعلى ضعف وعيهم بأهمية اللغة العربية كلغة وطنية لمجتمعهم. ومن ثم، جاء فقدان أو ضعف الالتزام لديهم بتضييق الخناق على اللجوء إلى استعمال كلمات وعبارات فرنسية كثيرة في العامية التونسية واللغة العربية الفصحى على حد سواء، كما رأينا سابقا.

٦ – إذا كان الألمان والإيطاليون والفرنسيون والأسبان، مثلا، يعرفون بتلقائية وتحمس هويتهم في المقام الأول بلغاتهم الوطنية، فإن الازدواجية اللغوية والثقافية للتونسيات و للتونسيين المتعلمين **لا تكاد تسمح لهم بربط هويتهم** بوضوح وبسهولة باللغة العربية : أي الانتماء الواضح والقوي إلى **الهوية العربية**.

القسم الثالث
الجندر واستعمال اللغة :
اللغة الفرنسية وإشكالية هوية المرأة التونسية

المرأة التونسية وسلوكها اللغوي :

ولإكمال تشخيص التأثير العام لحضور اللغة الفرنسية على اللغة العربية في المجتمع التونسي، يطرح صاحبُ الدراسة في هذا الجزء الأخير من البحث **عينة من التأثير الخاص** والمتمثل في تعامل المرأة التونسية مع اللغة العربية بسبب معرفتها كثيرا أو قليلا للغة الفرنسية.

لقد كثف الباحثُ اهتماماته في دراسة المجتمع التونسي خا صة والمجتمعات العربية بصفة عامة بعد عودته من أمريكا الشمالية التي درس ودرّس بها (الذوادي ٢٠٠٦،٢٠٠٢). فتوصل، كما وقعت الإشارة من قبل، إلى اكتشاف ظواهر ومفاهيم جديدة لا يكاد يدرسها علم الاجتماع التونسي أو العربي. فالشخصية التونسية المستنفرة والتخلف الآخر والفرونكوأراب الأنثوية وضعف التعريب النفسي والازدواجية اللغوية الأمارة أواللوامة والاقتصارعلى تربية ماشية الذكور في الشمال الشرقي التونسي كلها ظواهر ومفاهيم نجح صاحبُ البحث في اكتشافها من **صميم تربة النسيج الاجتماعي** للمجتمع التونسي والمجتمعات العربية (الذوادي ٢٠٠٦،٢٠٠٢، اللسان العربي ٢٠٠٧: ٤١ – ٦٢).

فلقد شدت انتباهه كثيرا ظاهرةُ استعمال اللغة الفرنسية في ثلاثة أقطار من المغرب العربي وهي تونس والجزائر والمغرب (الذوادي ٢٠٠٢) كما جاء في الجزء السابق من هذا البحث. والأكثر من ذلك، فقد لفت نظره بشدة على الخصوص **السلوك اللغوي النسائي مع اللغة الفرنسية** في هذه المجتمعات الثلاثة (الذوادي ١٩٨١: ١٢٤ – ١٣٧،١٩٩٦ : ٨١ – ٩١،١٩٥ –٢٣٠ : ٢٠٠٦) وهذا

ما يطمح هذا الجزء من البحث إلى طرحه ومناقشته وفهمه وتفسيره في صفحاته المحدودة. (Dhaouadi 1996 : 107-127 2002).

ومن ثم، تُطرح هنا مسألةُ **الاستعمال المختلف للغة لدى المرأة في المجتمع التونسي**. يزداد الاهتمام بهذا الموضوع في العلوم الاجتماعية والعلوم اللسانية الغربية على الخصوص (Holmes & Meyerhoff 2005). وفي المقابل، فإن هناك **إهمالا شبه كامل** في العلوم الاجتماعية العربية الحديثة لدراسة دلالات السلوكات اللغوية التي قد تختلف فيها النساء العربيات عن نظائرهن من الرجال (المرأة في العالم العربي/ كتاب جماعي ١٩٨٤، النوع الاجتماعي/ كتاب جماعي ٢٠٠٥). ومن ناحية أخرى، فقد لفتت نظرَ صاحب الدراسة ملاحظاتُه الميدانية لبعض ملامح السلوك اللغوي الأنثوي المختلف عن نظيره الذكوري لدى المرأة التونسية (الذوادي ١٩٨١، ١٩٩٦). فهذا الجزء من البحث يثيرنظريا مفهومي **الجنس والنوع الجنسي/جندر** كما يستعملان منذ عقود في دراسات العلوم الاجتماعية، وفي طليعتها علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا والنفس واللسانيات.

الجنس والنوع الجنسي :

تُعتبر مارجريت ميد عالمة الإنثروبولوجيا الأمريكية الشهيرة رائدة في ميلاد مفهومي الجنس والنوع الجنسي. إذ اكتشفت من خلال دراستها لقبائل أراباشس بغينيا الجديدة أن الرجال يتصفون ببعض السلوكات التي تُنسب عادة في مجتمعات أخرى إلى النساء مثل حب الأطفال والانفعال والحساسية. أما العالمة الأمريكية آن أوكالي فقد نشرت أول عمل في ١٩٧٢ حول (الجنس والنوع الجنسي والمجتمع) Sex, Gender and Society/Ann Oakaly. تُعرّفُ أوكالي النوع الجنسي بطريقة معاكسة لمفهوم الجنس. فكلمة الجنس تشيرعندها إلى الفروق الفيزيولوجية والبيولوجية بين المرأة والرجل، بينما يفيد مصطلح **النوع الجنسي/الجندر** بأنه **سلوك الجنسين المتأثر بثقافة مجتمعهما**، أي أن النوع الجنسي هو نتيجة لتصنيف اجتماعي ثنائي لما هو ذكوري أو أنثوي كما تراهما ثقافة المجتمع. ووفقا

لمنظور علماء الاجتماع، فالمجتمع طالما يقوم بتقسيم الأدوار على الجنسين بطريقة غيرمتساوية.

فقدان المفهومين في علم الاجتماع العربي :

ليس من المبالغة القول بأن الباحثين في علم الاجتماع العربي لا يكادون يستعملون مفهومي الجنس والنوع الجنسي كما ورد تعريفهما هنا. فعلى سبيل المثال، نشرت مجلة **إضافات** الصادرة عن الجمعية العربية لعلم الاجتماع في عددها السادس لربيع ٢٠٠٩ ملفا بأربعة بحوث حول الجنس في المجتمعات العربية. فعنوان البحث الأول: الخادمات والجنس: دراسة التصورات التي يحملها العرب عن الحياة الجنسية للخادمات المنزليات المقيمات. وجاءت الدراسة الثانية تحمل هذا العنوان: سوسيولوجيا المرأة والجنس في أعمال عبد الصمد الديالمي. أما الموضوع الثالث فعنونه صاحبه بالآتي: الجنوسة في فهم الشباب اللبناني: ثبات في الأحكام وتبدل في المواقف. وتطرق البحث الرابع والأخير إلى الحياة الجنسية للمراهقين. فكان عنوانه: المراهق والجنس: سيرة حياة مراهق قروي.

يتضح من عناوين تلك الدراسات **غياب مفهومي الجنس والنوع الجنسي** بالمعنيين المشار إليهما: الجنس كهوية فيزيولوجية بيولوجية لكل من المرأة والرجل والنوع الجنسي كهوية لكلا الجنسين يتعلمانها من ثقافة مجتمعهما. فأصحاب تلك البحوث يركزون في المقام الأول على النشاط الجنسي عند الخادمات وعند المرأة العربية/ المغربية وعند الشباب المراهقين في مجتمعات الوطن العربي. وبهذا الصدد هناك مشروعية كبيرة للقول بأنه كان من المنتظر أن يهتم علماء الاجتماع العرب بمفهوم النوع الجنسي على الخصوص. إذ إن ثقافات المجتمعات العربية ذات تأثير كبيرعلى تحديد شخصيتي المرأة والرجل العربيين وسلوكهما وأدوارهما المختلفة في تلك المجتمعات. وبذلك، فالنوع الجنسي هو مفهوم سوسيولوجي **مشروع ومفتاحي** لدراسة وفهم وتفسير العديد من الظواهر الاجتماعية العربية المتنوعة والمختلفة بين النساء والرجال في المجتمعات العربية في المشرق والمغرب العربيين.

فرغبة الباحث هنا في دراسة ظاهرة الرغبة البارزة لدى النساء التونسيات/ المغاربيات في استعمال اللغة الفرنسية تعود إلى عقود (الذوادي ١٣٧ –١٢٤ :١٩٨١ و١٩٩٦ : ٨١ – ٩١). ورغم التركيز هنا على هذه الظاهرة في المجتمع التونسي اليوم، إلا أنه يسهل تعميم ملاحظات ونتائج طرح هذا البحث على النساء في الجزائر والمغرب وربما على بنات حواء في بعض المجتمعات العربية الأخرى. تتلخص المقولة الرئيسية هنا في القول بأن **اللغة** ليست مجرد أداة تواصل بين الناس فحسب بل هي أيضا **أداة رمزية تعكس أيضا وضع المرأة المستعملة لها** على المستويات النفسية والاجتماعية والثقافية، كما سيتضح ذلك في بقية سطور هذا القسم من البحث.

اللغة الأم عند اليونسكوولدى المرأة التونسية :

قررت منظمةُ اليونسكو منذ سنوات الاحتفال في ٢١ فبراير من كل عام كيوم عالمي للاحتفال باللغة الأم. وذلك حفاظاً خصوصا على اللغات المهددة بخطر الزوال وتدعيما لمناعة حضور فسيفساء التنوع اللغوي في القارات الخمس (Wurm 2001). فتقام بهذه المناسبة الاحتفالات المتعددة لصالح اللغات الأم التي يقرب عددها من ٦٠٠٠ لغة على سطح المعمورة. واللافت للنظر بهذا الصدد أن **المجتمع التونسي الحديث لا يحتفل بهذا اليوم** الذي تنادي به اليونسكو. ومن ثم، تأتي مشروعية تساؤل هذا الباحث في الشؤون اللغوية للمجتمعات عن سبب غياب الاحتفال باللغة الأم في هذا المجتمع في ٢١ فبراير من كل عام: هل يعود الأمر إلى أن اللغة العربية ليست في خطر أو هل أنه لم تعد هناك لغة عربية واحدة اليوم في هذا المجتمع؟

مما لاشك فيه أن اللغة العامية التونسية تمثل اللغة الأم لمعظم التونسيات والتونسيين. تمثل المفردات العربية الجزء الأكبر من كلمات العامية التونسية وتليها مفردات اللغة الفرنسية. وهكذا يصح القول بأن العامية التونسية اليوم هي خليط من اللغتين العربية والفرنسية، كما ذكر من قبل. **فالعامية التونسية** هي، إذن، نوع من **الفرنكو أراب** التي يزداد فيها أو ينقص استعمال مفردات العربية والفرنسية

حسب عوامل مختلفة مثل نوعية تعليم وثقافة **وجنس المتحدث**. وينطبق هذا الوضع على المواطنات والمواطنين التونسيين.

وبالنسبة لعامليْ الجنس وجندر/النوع الجنسي، تفيد دراسات الباحث والملاحظات العامة أن النساء التونسيات المتعلمات والمثقفات على الخصوص يملن في كلامهن **أكثر** من نظرائهن من الرجال التونسيين إلى استعمال **النبرة الباريسية** l'accent parisien ورصيد أكبر من الكلمات والعبارات الفرنسية في حديثهن (Dhaouadi 1996 :107-125).

عينة لحديث التونسية :

يصف مقالُ الصحافي التونسي السيد محمد بن رجب الميل الكبير لاستعمال اللغة الفرنسية لدى المرأة التونسية في جريدة الصباح ٢٠٠٧/٠٨/١٤. سألت المذيعة سيدة في الثلاثين من عمرها، وهي خارجة من المسرح الأثري بقرطاج بضواحي تونس العاصمة، عن رأيها في سهرة الفنانة صوفية صادق.فقالت هذه السيدة: (الحفلة السواري طيارة فريمون. لاشانتوزصوفية عندها بالفوا،سي فريمون فوربل.يلزم التوانسة فياربالفودادات متاعهم. اونا مارمن لي ليباني الجدد. سي فريمون طيارة صوفية، طيارة. طيارة والسواري ميرفايوز). ونظرا **للكمية الكبيرة من الكلمات والجمل الفرنسية** في إجابة تلك التونسية بالعامية التونسية، فإن ترجمة إجابتها تصبح ضرورية للناطقين بالعربية من غير التونسيين والتونسيات: (حقيقة الحفلة ممتازة.فالمغنية صوفية لها صوت جميل. إنه حقا قوي الجمال. وعلى التونسيين الافتخار بمطرباتهم. كفانا من المغنين اللبنانيين الجدد. فصوفية حقا ممتازة ممتازة والحفلة رائعة).

يعلق ابن رجب على كلام هذه السيدة بالقول: «وكان يمكن أن لاتلفت هذه السيدة نظري تماما لو كانت هي وحدها التي استعملت هذه اللهجة التي جاءت أغلبها باللغة الفرنسية. **لكنها لم تكن نشازا.. ولاشاذة..** فلقد تحدث جل المستجوبات إلى المذيعة بالفرنسية السليمة.. أواللهجة اللقيطة التي تحتوي على جمل فرنسية كاملة أو مكسرة أو مخلوطة بكلمة إيطالية عابرة أو لفظة إنكليزية مدسوسة».

تميل معظم بنات حواء في هذا المجتمع إلى الافتخار بذلك رغم ما يمكن أن يكون لهذه الظاهرة من **جوانب سلبية على اللغة العربية**/ لغة البلاد وعلى **هويتهن** وانتسابهن الحضاري للثقافة العربية الإسلامية كما رأينا في القسمين السابقين من هذه الدراسة.

تسلط استعمال الفرنسية على التونسيات :

إن ما يلفت نظر عالم الاجتماع في السلوك اللغوي للمرأة التونسية هو مبالغتها في استعمال اللغة الفرنسية بدل العامية العربية التونسية النقية في حديثها عن **الألوان والمقا ييس والأيام والأرقام**. فنحن، مثلا، لا نكاد نسمع أي تسمية للألوان باللغة العربية عندما نصاحب زوجاتنا أثناء شرائهن بعض الملابس في المراكز التجارية وغيرها من المحلات. فالحديث عن ألوان الملابس ومقاييسها لا يتم في العادة إلا باللغة الفرنسية. فيندر استعمال الكلمات العربية للون الأزرق والأسود والأبيض والوردي والرمادي في حديث النساء المشتريات والبائعات على حد سواء. وتستولي اللغة الفرنسية أيضا بطريقة شبه كاملة في الحديث على مقاييس طول وعرض الملابس. فهذا الاستعمال المتكرر باللغة الفرنسية في هذه المناسبات في دنيا عالم النساء يؤدي إلى نشأة عرف لغوي عام بين التونسيات يعطي الأولوية للفرنسية بحيث يجعلهن **يخجلن من استعمال اللغة العربية** في الحديث عن الألوان والمقاييس والأرقام. ويشبه هذا الوضع ما نجده في خجل التونسيات والتونسيين في كتابة صكوكهم (شيكاتهم) المصرفية باللغة العربية. وبالإضافة إلى ثقافة استعمال اللغة الفرنسية عند التونسيات في التعامل مع الألوان والأرقام والمقاييس فإن هناك أيضا ميلا كبيرا عندهن لاستعمال لغة موليار بدل اللغة العربية في ذكر أسماء أيام الأسبوع. يجوز القول إن كل تلك الأمثلة تشير إلى أن هناك حضورا غير شعوري لرواسب الاستعمار اللغوي الفرنسي بين أغلبية التونسيات بصفة عامة، وذلك بعد أكثر من نصف قرن من الاستقلال (الذوادي ٢٠٠٦: ١٩٥ – ٢٤٢). وتلك هي أيضا خصوصية أخرى من بين عديد الخصوصيات في عالم لغة المرأة التونسية اليوم.

الفرنكوأراب اللغة الأم عند التونسيات :

يتجلى في تلك العينة المحدودة من الأمثلة على مدى تسرب وانتشار استعمال اللغة الفرنسية في الحديث العادي واليومي للتونسيات **مدى بُعد معظمهن** عن استعمال العامية التونسية العربية النقية كلغة أم. ومن ثم، يمكن اليوم تصنيف الخطاب اللغوي عند النساء التونسيات إلى **ثلاثة أنواع:** ١- العامية التونسية العربية **النقية** التي لا تستعمل إلا المفردات العربية. وهي ظاهرة نادرة جدا بين معظم التونسيات ٢- العامية التونسية التي تحتوي على عدد كبير من الكلمات والجمل الفرنسية. ومن ثمّ يمكن تسميتها **بالفرنكوأراب العامية** المتداولة في كامل المجتمع التونسي. ٣- **الفرنسية كلغة أم** في المقام الأول لعديد التونسيات. إنها ظاهرة موجودة بدون شك، وربما تكون ظاهرة أكثرانتشارا من الصنف الأول من العامية العربية التونسية النقية المشار إليها.وهكذا يتجلى أن اللغة الأم عند الأغلبية الساحقة من التونسيات ليست العامية التونسية العربية النقية، وإنما هي الفرنكوأراب (الذوادي ٢٤٢ – ١٩٥:٢٠٠٦). قد يتفوق رصيد اللغة الفرنسية بكثير عند العديد من التونسيات على رصيد اللغة العربية في حديثهن كما رأينا في ما ورد في مقال السيد محمد بن رجب. وهو وضع ربما ينذربخطر على العامية التونسية العربية الأصيلة. يرى ابن رجب «أن ما يجري على اللهجة الدارجة أمر غير مفهوم ولا هو مقبول. وإذا ما تهاونا أكثر فإن التونسي سيفقد لهجته شيئا فشيئا ولن يكون مفهوما في جانب من الأوساط الاجتماعية في تونس ثم لن يكون مفهوما في كامل البلاد العربية». ويتساءل أمام هذه الحالة اللغوية السيئة عن سبب **غياب الوعي في المجتمع التونسي** بهذا والقيام بالسياسات اللغوية الضرورية لتحاشي فقدان اللهجة التونسية العربية الأصيلة. فيعلق السيد ابن رجب كاتبا: «وما يزعج حقا أن لا أحد يعمل على إيقاف هذا التيار الذي يتحرك بقوة جارفا اللهجة التونسية التي يعتبرها المختصون أقرب لهجة إلى اللغة العربية الصافية». وبالتعبير السوسيولوجي، فإن تشخيص صاحب البحث وتشخيص السيد ابن رجب يشيران إلى وجود **مشكل لغوي اجتماعي** بالمجتمع التونسي اليوم. إذ تتعرض لغة البلاد

إلى أخطار من طرف أهلها لا تهدد فقط مجرد استعمالها بل هي قد تعمل قي نهاية المطاف حتى على زوالها.

لا يحاول السيد ابن رجب تفسير أسباب غياب العمل على إيقاف ما يسميه بالتيار الجارف ضد اللهجة التونسية العربية النقية رغم أن تلك الأسباب تكاد تكون واضحة لأغلبية الملاحظين لملف التعريب في المجتمع التونسي بعد الاستقلال. تفيد الملاحظات حول علاقة التونسيات والتونسيين باللغة العربية أن هذه الأخيرة لم تكسب بعد أكثرمن خمسة عقود من الاستقلال المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات التونسيات والتونسيين.ويعود هذا، كما بيّن صاحبُ الدراسة من قبل، إلى فقدان القيادة السياسية والنخب الثقافية التونسية للعهد الأول للاستقلال خاصة تحت سلطة القيادة البورقيبية إلى تحمس كاف لصالح التحرر اللغوي والثقافي من الاستعمار الفرنسي. فنشأت نتيجة لذلك **عقلية تونسية جماعية** غير واعية حقا بطبيعة الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي الذي يؤهل أكثر من غيره من أنواع الاستعمار الناس إلى الاستعداد والتهيُؤ إلى القبول بالاستعمار، كما قال المفكر الجزائري مالك ابن نبي. ومن ثم، يُفهم ترحيبُ تلك العقلية التونسية الجماعية باستمرار استعمال اللغة الفرنسية على حساب اللغة العربية. إذ تعتبر تلك العقلية السائدة اليوم بين الإناث والذكور أن استعمال التونسيات والتونسيين للغة الآخر/فرنسا هو ضرب من التفتح المتحضر. وهي قضية تحتاج للتحليل العلمي لكشف ما يمكن أن يوجد من **متاهات الالتباس** حولها عند التونسيات والتونسيين. وهذا ما حاولت أقسام هذا البحث القيام به وإبرازه بكثيرمن الشفافية والدّقة (اللسان العربي ٢٠٠٧).

اللغة الأجنبية وبث مركب النقص :

ينتشر اعتقاد جماعي في المجتمع التونسي بأن تعلم اللغات الأجنبية أمر إيجابي بالكامل. وكما وقعت الإشارة، تؤكد البحوث في هذا الموضوع أن تعلمها ليس بالضرورة بالأمر الإيجابي في كل الظروف، ومن ثمّ قد يكون سلبيا على عدة مستويات (Abdelilah-Bauer 2008) تجهلها اليوم . حسب ملاحظات الباحث .

الأغلبية الساحقة من الفئات المتعلمة بالمجتمع التونسي. فعلى سبيل المثال، التقى صاحبُ هذه الدراسة في شهرحزيران ٢٠٠٨ زميلة جامعية تونسية لا يعرفها من قبل في إحدى الندوات بتونس العاصمة حول المرأة العربية. فبدأ يتجاذب أطراف الحديث حول مواضيع الندوة. فكانت تمزج كلامها كثيرا بالفرنسية. وبعد مهلة من الاستماع إليها على هذا النحو من المزج اللغوي، لم يكد الباحث يصبر على عدم الاحتجاج عليها، فخاطبها قائلا «إني سوف لن أستمرفي الحد يث معك إن أنت واصلت هذا النمط من الكلام، فلنا لهجتنا العربية التونسية **النقية** أو العربية الفصحى لغتنا الوطنية التي ينبغي استعمالها بيننا». فأردفت قائلة: «فهل تقبل المزج باللغة الإنجليزية» فأ جابها أبدا يجب الالتزام باستعمال اللغة العربية في شكليْها العامي والفصيح فردتْ عليه بالفرنسية قائلة: «même pour les intellectuels?!» أي حتى بين المثقفين؟

إن تأويل عالم الاجتماع لباطن تساؤل هذه الزميلة يشير إلى أن معظم المتعلمات والمتعلمين والمثقفات والمثقفين التونسيين من الجنسين قد تعلموا في المدرسة والجامعة والمجتمع وكأن اللغة العربية غير صالحة لكي تكون أداة تعبير على الفكر والثقافة والعلم بينهم. فأصبح هذا الموقف/الاتجاه **ظاهرة جماعية** تلاحظ بسهولة لدى عدد كبير منهم قبل وبعد الاستقلال وبعد الثورة. والزميلة المشار إليها مثال حي على علاقة الاغتراب المستمرة مع اللغة العربية التي يجدها المرء عند عدد كبير من المتعلمات والمتعلمين والمثقفات والمثقفين التونسيين. وتعني **حالة الاغتراب**، كما سبق ذكره، فقدان شعور الغيرة على اللغة العربية وندرة من يدافع عنها باقتناع وحماس بين العامة والخاصة. فيؤدي من ثمّ مثل هذا الموقف إلى مشاعر وسلوكا ت تحقيرية للغة العربية، ومن ثم **بثُّ الشعور بمركب النقص** إزاء الذات والهوية باعتبار أن اللغة هي بطاقة الهوية الوطنية عند الشعوب، كما رأينا في مجتمعات الاتحاد الأوروبي.

ومن هنا، **لايجوز علميا وموضوعيا** اعتبار سلوك تنكر هذه الزميلة لاستعمال اللغة العربية انفتاحا على الآخر بل هو استلاب يمس أهم مكونات هوية الأفراد

والشعوب، ألا وهي اللغة. وبناء على التحليل الواقعي، فهناك شروط ضرورية لتعلم لغة الآخر كوسيلة للانفتاح عليه لا كصنارة للانسلاخ والانبتات من الذات والهوية. ومن ثمّ، فلا تطرح معظم التونسيات والتونسيين قضية الشروط الضرورية للمحافظة على ما يسميه الباحثُ **المناعة اللغوية والثقافية** للمواطنات والمواطنين التونسيين ومجتمعهم كما تفعل المجتمعات المتقدمة إزاء تعلم اللغات الأجنبية.تتمثل هذه الشروط في محافظة لغتهم/ لغاتهم الوطنية على المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات الخاصة والعامة في مجتمعاتهم. ومن ثمّ لا توجد فرصة لظهور أعراض مركبات النقص عندهم بسبب تعلمهم للغات الأجنبية كما هو الحال بالمجتمع التونسي. وعليه، لا يجوز موضوعيا الترحيب بتعلم اللغات الأجنبية إذا أصبحت هذه اللغات مصدرا لجعل اللغة/ اللغات الوطنية في المكانة الثانية أو الثالثة بين أهلها، وفي مجتمعاتها وسببا لبث مركبات النقص في الأفراد ومجتمعاتهم وتشويش وإرباك هويتهم العربية.

شعار التفتح على الآخر :

وبناء على ما جاء من ملاحظات وبيانات سابقة للسلوك اللغوي لدى النساء التونسيات، فإن أغلبهن يريْن جوانب إيجابية في استعمال اللغة الفرنسية بلا حدود على حساب اللغة العربية. إذ يعتبرن ذلك النوع من الاستعمال للغة الآخر معلما من معالم عملية **التحضر والتفتح** التي يفتخر بها معظم التونسيات والتونسيين. فشعار التفتح على الآخر عبر استعمال لغته يشبه شعار الكاتب الجزائري كاتب ياسين الذي وقع تحليله في القسم السابق من هذا البحث. فبمقاييس حسابية بسيطة، يمثل حضور اللغة الفرنسية في استعمال التونسيات **خسارة اجتماعية ونفسية للغة العربية** وليس غنيمة كما يدعي كاتب ياسين. تتمثل هذه الخسارة في فقدان اللغة العربية لموقعها الأول في الاستعمال بين التونسيات، وفي خسارتها لمكانتها الأولى في قلوبهن. وهكذا، فلا يجوز بكل بساطة اعتبار هذا الوضع اللغوي المشين للغة العربية تفتحا حقيقيا على الآخر، بل هو **أداة استلاب للغة العربية** ومن ثمّ **للهوية التونسية العربية** لدى المرأة التونسية.

تصلح بعض المعطيات الواردة أعلاه لتفسير قبول الكثير من الأمهات والآباء التونسيين نصيحة معلمات مدارس البعثات الفرنسية بأن لا يتحدث هؤلاء بالعربية مع بناتهم وأبنائهم في منازلهم حتى يتقنوا الفرنسية جيدا على حساب تهميش وإقصاء اللغة العربية. وكما أشارصاحبُ الدراسة، فالتحليل الموضوعي يؤكد أن التفتح الحقيقي المفيد على الآخر لا يتم بدون المناعة اللغوية والثقافية الذاتية للأفراد والمجتمع. ويتمثل ذلك بالتحديد في أن تحتل اللغة العربية في المجتمع التونسي المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات المواطنات والمواطنين ومؤسسات مجتمعهم. ووفقا لهذه المعايير، يمكن القول إن أغلبية التونسيات والتونسيين غير مؤهلين لرفع شعار التفتح الحقيقي على الآخر في أمن وأمان، وبتبادل ندي ومتكافئ معه.

دلالات النبرة الباريسية عند المرأة التونسية :

هناك إجماع بالمجتمع التونسي أن المرأة والرجل **يختلفان** في نطق حرف الـ(r) الفرنسي أثناء حديثهما بالفرنسية الصرفة أو أثناء مزج حديثهما بالعربية والفرنسية (الفرنكوأراب) أو عندما يقرآن كلمات وجمل اللغة الفرنسية. ويتمثل هذا الفرق النطقي بين الجنسين في أن **المرأة تميل أكثر من الرجل** إلى نطق حرف الـ(r) **بنبرة باريسية** l'accent parisien، أي نطقه بنبرة تشبه نطق حرف الغين (غ) في اللغة العربية (الذوادي 1981: 124 - 125،137 - 107 :Dhaouadi1996). وفي مقابل ذلك يميل الرجل التونسي أكثر إلى نطق حرف الـ(r) كما ينطق أساسا حرف الراء (ر) في لغة الضاد.

إن هذا الاختلاف النطقي بين الذكر والأنثى قد لايبدو ذا أهمية بالنسبة للإنسان العادي، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لكل من عالم اللغة والاجتماع والنفس. فالفرق في نطق حرف الـ(r) بين الجنسين قد يكون له **دلالات ذات أبعاد نفسية واجتماعية وثقافية** عند كل منهما. وبعبارة أخرى فنطق حرف الـ(r) بالنبرة الباريسية عند الأنثى ربما يرمز إلى حالة نفسية أو اجتماعية أو ثقافية أو بعضها

أوكلها معا عند المرأة التونسية. وكذلك الشأن بالنسبة لنطق الـ(r) بنبرة الراء (ر) العربية عند الرجل التونسي.

وما كان لصاحب هذا البحث في حقيقة الأمر أن يفترض اقتران نبرة نطق الـ(r) عند كل من الجنسين التونسيين بدلالات نفسية واجتماعية وثقافية لو أن الفرنسيات والفرنسيين الباريسيين كانوا مختلفين في نطق حرف الـ(r) أثناء حديثهم بلغتهم الفرنسية. لكن سكان باريس الأصليين مشهود لهم نساء ورجالا فتيانا وفتيات... بنبرة الغين (غ) عند نطقهم لحرف الـ(r) في لغة موليار. ومن ثم **لا يجوز** للباحث الاجتماعي الجاد أن يتبنى **موقف اللامبالاة** إزاء ظاهرة الاختلاف العام بين التونسية والتونسي في نطقهما لحرف الـ(r) عند استعمالهما للغة الفرنسية. أي أنه مطالب أن يسأل نفسه: لماذا يختلفان في نبرة نطق حرف الـ(r) والحال أن الفرنسي الباريسي ونظيرته الباريسية لا يختلفان؟ وكما أشار الباحثُ سابقا، فإن صمت علم الاجتماع العربي عن دراسة السلوك اللغوي العام عند النساء هوأحد الأسباب الذي يفسر حالة اللامبالاة إزاء الدلالات النفسية والاجتماعية والثقافية للنبرة الباريسية عند المرأة التونسية.

الحداثة وتقليد الآخر:

ولتحديد طبيعة العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية التي تلعب دورا حاسما في الاختلاف النطقي لحرف الـ(r) بين الجنسين نحتاج في المقام الأول إلى معرفة **نوعية علاقة الأنثى بالذكر** بالمجتمع التونسي. فالعلاقة بينهما لا تزال تشوبها في بعض الحالات، على الأقل، عدم المساواة حيث يتمتع الذكر أحيانا بنصيب الأسد. ويتجلى هذا الوضع، مثلا، في فقدان المساواة الكاملة بين الجنسين في التمتع بما يطلق عليه صاحبُ الدراسة مصطلح **مكاسب الحداثة** بمفهومها الغربي. فحرية الفرد في ممارسة التعرّف والاتصال بالجنس الآخر والتنقل أثناء الليل والنهار وحضوره في أي مكان يريد بكل حرية (المقاهي، قاعات السينما والمسرح...) وارتداؤه اللباس الذي يرغب فيه... كلها سلوكات تقترن بظاهرة الحداثة المعاصرة

في المجتمعات الغربية. وواضح أن الأنثى في المجتمع التونسي الحالي لا تتمتع بتساوكامل مع نظيرها الذكر في بعض تلك المكاسب الحداثية. إن وجود حالة اللامساواة هذه يساعد على تفسير الفرق النطقي لحرف الـ(r) بين التونسية والتونسي. **فالحداثة أثبتت أنها قطب رئيسي برّاق وجذاب** لاهتمامات الأفراد خاصة أفراد مجتمعات العالم الثالث الذين عايشوا أكثر من غيرهم عمليتي التعليم والتثقيف الغربيين. وهكذا، فالانجذاب والتوجه نحو عالم الحداثة عند الأنثى أصبح محرّكا رئيسيا يدفع بها إلى تقليد الغرب الغالب بما فيه على المستوى اللغوي كوسيلة تعويضية لفقدان المساواة الكاملة مع الرجل. وكما قال ابن خلدون «فالمغلوب مولع دائما بالاقتداء بالغالب». ومن هذا الطرح التنظيري لمفهوم الحداثة وانعكاساتها على الجنسين يطرح الباحثُ الآن **فرضيات أسباب الاختلاف النطقي لحرف** الـ(r) بأكثر دقة بين الأنثى والذكر في تونس.

النبرة الباريسية جزء من كلّ :

١- فنطق حرف الـ(r) عند التونسية والتونسي هو جزء من ظاهرة لغوية كبرى تتجلى في تحدثهما بالفرنسية الصرفة أوفي مزج حديثهما بين العامية العربية والفرنسية (الفرنكوأراب) في نفس الوقت (الذوادي ٢٠٠٦). يمكن هنا ذكر **صنفين من الفرنكوأراب:** أ) الفرنكوأراب الذكورية وب) الفرنكوأراب الأنثوية. وتتميّز هذه الأخيرة عن الأولى في كون أن الإناث التونسيات المثقفات والمتعلمات على الخصوص يملن أكثرمن نظرائهن الرجال إلى استعمال كمّية أكبر من الكلمات والعبارات الفرنسية أثناء حديثهن بالعامية التونسية. ومن ثمّ، فالفرق في استعمال اللغة الفرنسية من طرف الجنسين **لايقتصر** على مجرد الفرق في نطق حرف الـ(r) في لغة موليار بل يتعداه إلى عدد الكلمات والجمل التي يستعملها كل منهما من اللغة الفرنسية، كما وقعت الإشارة من قبل (Dhaouadi 1996 :107 -125).

٢- لاتزال اللغة الفرنسية تمثل لكل من التونسية والتونسي شيئين: أ) إنها لغة الغالب وب) لغة الحداثة والعصرنة. فكل من أ و ب هما عاملان يحفّزان الاثنين

على الانجذاب إلى استعمال اللغة الفرنسية أكثر ما يمكن من أجل **الرفع نفسيا** من معنويات المغلوبة/ المغلوب. ففي استعمال لغة الآخر شعور بتحسين الذات ورفع من مكانتها.

٣- والسؤال الرئيسي هنا: لماذا **تتفوق** الأنثى التونسية المتعلمة في انجذابها إلى الفرنسية على نظيرها التونسي المتعلم ؟ أي لماذا تتغلب عليه في نطق حرف الـ(r) بالنبرة الباريسية وفي عدد المفردات والجمل التي تستعملها من اللغة الفرنسية أثناء سلوكها اللغوي العام ؟

الحتمية الاجتماعية والنفسية والثقافية والسلوك اللغوي :

إن الإجابة على ذلك السؤال يحددها ما يريد أن يطلق عليه صاحبُ البحث إسم قانون الحتمية الاجتماعية النفسية والثقافية. فعلى المستوى الاجتماعي تشكو المرأة التونسية الحديثة من **دونية مزدوجة:** (أ) فهي مثل نظيرها الرجل في موضع المغلوب بالنسبة للمستعمر الفرنسي القديم الغالب والغرب بصفة عامة و(ب) فهي تشكو من دونية ثانية مقارنة بزميلها الرجل من حيث مكانتها الاجتماعية عموما وتمتعها بما سماه الباحثُ آنفا بمكاسب الحداثة خصوصا (Dhaouadi 2008). وبعبارة أخرى، فالبُنى الاجتماعية وقيم وأعراف وتقاليد مجتمعها التونسي العربي المسلم تضع أمامها **عراقيل أكثر** بالنسبة لمحاولتها التقدم اجتماعيا وكسب رهان الحداثة. ففي هذه الظروف تجد نفسها معرّضة أكثر من الرجل التونسي إلى ضغوط وإحباطات نفسية واجتماعية وثقافية. وسعيا منها لتجاوز وضعها الاجتماعي والنفسي والثقافي الخاص تلوذ إلى ما يمكن أن تسمّيه **بالحل الرموزي التعويضي**، أي أن حالة عجزها على تغيير وضعها الاجتماعي مباشرة جعلها تلجأ إلى **أحضان اللغة الفرنسية كعالم رموز لغوي تقدّمي وتحديثي**. فتستعملها أكثر من نظيرها الرجل، وتتقن نطقها الصحيح بالكامل كما يفعل ذلك الباريسيون أنفسهم. واستعمال الأنثى التونسية للرموز اللغوية كحلّ لوضعها الاجتماعي المتأزم ليس بالشيء الغريب. فخطاب «**الدعا**» (الدعاء على) المتفشي بين الفئات

النسائية التونسية مثال آخر حيّ وناطق على ذلك (الذوادي ٢٠٠٦ : ٢٣١ – ٢٤٤). فاستعمالها المكثف للفرنسية وبالنبرة الباريسية في نطق حرف الـ(r) هو عبارة عن **احتجاج سلمي** ضد مجتمع ذكوري، من جهة، وتقليد بالكامل للآخر الفرنسي في لغته، من جهة ثانية.

أما محافظة التونسي على نطقه حرف الـ(r) بنبرة الراء (ر) العربية ففيها أكثر من إشارة ورمز على وضعه الاجتماعي والنفسي والثقافي في هذا الصدد. نعم، هو منجذب إلى استعمال الفرنسية، كما رأينا في القسم الثاني من هذا البحث، بسبب انجذابه للحداثة وبسبب وضعه المغلوب أمام الفرنسي والغربي عموما. ومع ذلك يبقى وضعه الاجتماعي والنفسي أحسن من وضع زميلته المرأة كما بيّنت معطيات كثيرة في هذه الدراسة. وهذا ما **يسمح له بالتميّز** شيئا ما عن الفرنسي الباريسي وهو يستعمل لغته. فهو ينطق في الغالب حرف الـ(r) بنبرة عربية لا بنبرة باريسية. ويجوز تأويل سلوكه اللغوي هذا بأنه ضرب من الإصرار على تعنته في التمسك بشيء من هويته حتى وهو يقلّد الآخر في استعمال لغته، أي أنه غير مهيئ اجتماعيا ونفسيا وثقافيا – مثل نظيرته المرأة – على تقليد الآخر بالكامل. فعلى مستوى تقليد الآخر لغويا، نحن، إذن، **أمام صنفين من التقليد**: (١) تقليد بالكامل و(٢) تقليد منقوص. وكل منهما حصيلة لنوع خاص من الحتمية الاجتماعية والنفسية والثقافية كما تمّ بيان ذلك. ويفصح كل من هذين التقليدين عمّا **تتعرض له هوية كل من الجنسين** من درجة انصهار في الآخر/ الفرنسي.

الحداثة مصدر مشاكل لدى التونسيات :

من المؤكد أن موقف التونسيات لصالح استعمال اللغة الفرنسية بدل اللغة العربية كما وصف الباحثُ البعض من معالمه هنا، ويرجع إلى أسباب عديدة ذات صلة وطيدة بعلاقة المغلوب بالغالب كما جاء في مقدمة ابن خلدون. فالمرأة التونسية مثلها مثل الرجل التونسي هي في حالة المغلوب بالنسبة للفرنسي المستعمر القديم. إذن، فهي مرشحة لتقليد الفرنسيات والفرنسيين في لغتهم وفي نبرة نطقها

الباريسية وفي أشياء أخرى. وإضافة لما ورد ذكره من أسباب لذلك، فإن إحدى الباحثات الأمريكيات ترى أن ظروف الحداثة تؤدي إلى أمراض نفسية لدى المرأة التونسية (Hays 1987).

وبناء على التحليل النفسي الذي يتبناه صاحبُ الدراسة، فإن طرح التفسير النفسي يصبح أمرا مفهوما ومشروعا لوجود **صنفين من لغة الأم** لدى التونسيات المشار إليهما سابقا: ١- الفرنكوأراب المشحونة بمفردات اللغة الفرنسية وجملها عند الأغلبية الساحقة من التونسيات المتعلمات كأمهات أو كعازبات و٢- الفرنسية كلغة الأم عند الكثيرمن التونسيات: يصلح هذا **الوضع اللغوي المأزوم** ذو الجذور النفسية بين معظم التونسيات لتفسير ضعف تعاطفهن المتحمس لاستعمال اللغة العربية أو العامية التونسية العربية النقية. وبغياب مثل ذلك التعاطف مع اللغة الأم (اللغة العربية أو العامية النقية) عند أغلبية الأمهات التونسيات **تتضرر بالتأكيد علاقة أطفالهن باللغة العربية** في شكليْها الفصيح والعامي. ومن ثم، تتأثر سلبا علاقة الأجيال الصاعدة باللغة العربية، ومن ثم بانتسابهم إلى الهوية العربية لوجود علاقة وثيقة بين اللغة والهوية كما تبين أقسام هذا البحث.

فبعد هذا التحليل النفسي الاجتماعي للسلوك اللغوي الخاص للمرأة التونسية يتضح أن **هذا السلوك هو نتيجة لمشاكل ثقافية ونفسية ومجتمعية** تعاني منها النساء التونسيات أكثر من الرجال في المجتمع التونسي. وبعبارة أخرى، يجوز القول بأن الركض وراء استعمال اللغة الفرنسية يشير إلى أعراض اجتماعية وثقافية ونفسية غير سوية. ومنه، فلاينبغي علميا وموضوعيا التباهي والافتخار بها كما تفعل الكثير من التونسيات. إذ إن ذلك الركض هو في نهاية المطاف مؤشر على مخزون مشاكل ثقافية ونفسية واجتماعية لعب ويلعب فيها تسلطُ الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي دورا أكبر وأبرز على **النوع/ الجندر الأنثوي**.

إن دراسات العلوم الاجتماعية تجمع أن هناك علاقة وثيقة بين اللغة والهوية الجماعية للشعوب (Kivisto 2002 : 14). ومن ثم، فالاختلال في هاته العلاقة بين

التونسيات واللغة العربية هو مصدر أساسي لاحتمال إفراز **هوية نسائية تونسية مضطربة ومرتبكة** بالنسبة للانتماء القوي للهوية العربية. إذ تشير بحوث هذه العلوم، كما تفصل القول صفحات هذه الدراسة، أن العلاقة بين اللغة والهوية علاقة قوية جدا. ويجوز على هذا الأساس توقع تأثر الهوية العربية للمرأة التونسية سلبا بسب ضعف علاقة هذه الأخيرة باللغة العربية. أي أن ضعف هذه العلاقة مرشحة بقوة لكي تنقص من تماسك وصلابة معالم الهوية العربية لأغلبية النساء التونسيات المثقفات والمتعلمات في نظام التعليم المزدوج اللغة والثقافة أو الأكثر تفرنسا على الخصوص.

خلاصة القول

يمكن إيجازمقولة هذا البحث في بعض الملاحظات والتوصيات الرئيسية. يجوزالقول بأن اللغة هي المحدد الأول لهوية الإنسان، ولذا سمى القدماء الإنسان حيوانا ناطقا: مستعملا للغة المنطوقة المميزة لهويته عن بقية الكائنات الأخرى. وأضاف القسم الأول لهذه الدراسة جوانبَ أخرى منبثقة من اللغة تحدد في نهاية المطاف هوية الإنسان في أكمل صورها. وتتمثل تلك الجوانب في منظومة **الرموزالثقافية**: اللغة والفكروالدين والمعرفة/ العلم والقيم والأعراف الثقافية.. التي لايكون لها وجود في غياب اللغة البشرية. ومن ثم، أكد البحث أن **اللغة هي أم الرموز الثقافية جميعا**. وهكذا يتجلى أن التشخيص الوافي لهوية الإنسان يكون في وصفه بأنه **ذو هوية لغوية رموزية ثقافية** في الصميم. ونظرا لمركزية اللغة في تحديد هوية الإنسان، فإن المجتمعات التي تسود فيها لغة وطنية واحدة تعرف هويتها بتلك اللغة كماهوالحال في بعض المجتمعات الأوروبية مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا. ويبقى تأثيراللغة بارزا في تشكيل هوية الأفراد والمجتمعات عندما توجد أكثرمن لغة وطنية في مجتمع واحد. فيتأثر مواطنو هذا الأخير كثيرا **بلغتهم الخاصة/ المحلية** في تحديد هويتهم كما هوالأمربالنسبة للأكراد في العراق ومواطني مقاطعة كيباك في كندا. وتناسقا مع أهمية دوراللغة في تحديد الهوية، فإن معطيات هذا البحث تفيد أن حضوراللغات الأجنبية **محدود التأثير** على تغيير هويات المجتمعات والأفراد الذين يستعملون كثيرا اللغات الأجنبية مثلما هوحال انتشار استعمال اللغة الفرنسية في المجتمعات المغاربية المعاصرة التي لايكاد يوجد فيها من يتخلى عن هويته الجزائرية أوالتونسية أوالمغربية أو الموريتانية لصالح الانتساب إلى الهوية الفرنسية. لكن انتشار استعمال اللغة الفرنسية في هذه المجتمعات **له أضرار كثيرة على اللغتين الوطنيتين: العربية والأمازيغية.** وتتجلى الآثارالسلبية لانتشاراللغة الفرنسية على اللغة العربية في المجتمع التونسي الحديث، كما يتبين ذلك في القسمين الثاني والثالث لهذا البحث. ونظرا للعلاقة

الوثيقة بين اللغة والهوية، فإن الاستعمال الواسع للغات الأجنبية لايخلو من إحداث بعض التشويش والإرباك، على الأقل، في تماسك هويات الأفراد والجماعات والمجتمعات. يصدق هذا كثيرا على النخب السياسية والثقافية ذات التعليم الغربي لغة وثقافة وفكرا في مجتمعات المغرب العربي. لقد بين البحث أن ذلك يعود في المقام الأول إلى ما أطلق عليه صاحبُ البحث مفهوم **الازدواجية اللغوية الأمارة** التي طالما تقترن لدى تلك النخب بالأعراض الآتية:

الانتماء إلى ثقافتين دون القدرة على تعريف الذات بالانتماء الكامل لأي منهما والتذبذب المزدوج الذي يتمثل في رغبتهم كسب علاقة حميمية كاملة مع الغرب ومع مجتمعهم في نفس الوقت دون النجاح في أي منهما. كما يتصف خريجو التعليم الحمّال للازدواجية اللغوية الأمارة بشخصية منفصمة ناتجة عن معايشة عاملين قويين متعاكسين: الارتباط بالثقافة العربية والانجذاب إلى الثقافة الغربية. وأخيرا تظهر تلك النخب عداء سافرا للاستعمار الفرنسي، لكن يقابله في نفس الوقت ترحيب كبير بلغته وثقافته.

ونظرا للانتشار الكبير للغة الإنجليزية في الخليج العربي خاصة، فإن استشراف ظهور ازدواجية لغوية أمارة بين سكان المجتمعات العربية الخليجية ولدى نخبها على الخصوص أمر منتظرالوقوع في الحاضر والمستقبل بين الأجيال الشابة، ومن ثمّ لدى أجيال هذا القرن. وهكذا يجوز القول، بأن مجتمعات المغرب العربي الفرنكوفونية ومجتمعات الخليج العربي **هي أكثرمجتمعات الوطن العربي ترشحا للتعرض للمشاكل مع هويتها العربية.** إذ هناك قانون شبه حتمي في المسألة اللغوية. يؤكد هذا القانون أنه من الصعب تبرئة الاستعمال الواسع للغات الأجنبية تماما من التأثير السلبي على هويات الكثيرين من الناس في مجتمعاتها. تتمثل بعض معالم هذا التأثيرالسلبي، مثلا، في وضع حد – لدى العديد منهم – للإيمان بالهوية الحالية كمسلّمة من المسلّمات أوإنكارها بالكامل. إن السلوكات اللغوية للتونسيات والتونسيين المذكورة في القسمين الثاني والثالث لهذا البحث

تضع النقاط على الحروف بالنسبة لتشويش علاقتهم مع اللغة العربية، ومن ثمّ بتشويش علاقتهم مع الهوية العربية، بسبب العلاقة الوثيقة بين اللغة والهوية موضوع هذا البحث.

تتمثل إمكانية التخفيف من هذا الوضع أوالخلاص منه في المجتمعات المغاربية والخليجية على الخصوص في تبني **سياسات لغوية جديدة تحقق المناعة اللغوية والثقافية لتلك المجتمعات.** ولايعني هذا أبدا الدعوةَ إلى طلاق تعلم اللغات الأجنبية وإغلاق باب التفتح على الغرب خاصة. وإنما يعني أن لا يؤدي تعلم اللغات الأجنبية إلى تحويل اللغة العربية إلى لغة ثانية أوثالثة في مجتمعاتها. وبعبارة أخرى، فهذه المجتمعات المغاربية والخليجية وغيرها من المجتمعات العربية مطالبة أن تتبنى ما سمّاه الباحثُ الازدواجية أوالثلاثية اللغوية اللوامة كبديل يضمن المحافظة على ما أطلق عليه صاحبُ الدراسة مصطلح المناعة اللغوية الثقافية. فتطبيق **الازدواجية اللغوية اللوامة** في المجتمعات العربية يجعل المواطنين ومجتمعاتهم يغارون على لغتهم العربية ويتحمسون للدفاع عنها، فيلوم بعضهم البعض حتى على ندرة عدم احترام البعض منهم للغة العربية، لغتهم الأولى. فهذه الازدواجية اللغوية تحرص كل الحرص وبحماس كبيرعلى صيانة مناعة اللغة الأم/ العربية وتطورها ونموهامتخذة من أجل ذلك كل السبل الضرورية **من توعية مجتمعيّة باللغة العربية كرمز وطني مقدس مثل علم البلاد** ومن المطالبة بسنّ سياسات لغوية تصون اللغة العربية من انحدار مكانتها نفسيا واجتماعيا واستعمالا إلى المرتبة الثانية أو الثالثة بين أهلها وذويها.

المراجع

باللغة العربية:

- الحاج، كمال يوسف (١٩٦٧) **في فلسفة اللغة**، بيروت، دار النهارللنشر ش ه ل.
- **الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية** (٢٠٠٥). الجزائر، الميزان للنشر والتوزيع.
- **الدراسات الاجتماعية عن المرأة في العالم العربي**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر واليونسكو ١٩٨٤.
- الذوادي، محمود (٢٠٠٢) **التخلف الآخر: عولمة أزمة الهويات الثقافية في الوطن العربي والعالم الثالث**، تونس، الأطلسية للنشر.
- الذوادي، محمود (١٩٩٥): «في مخاطر الازدواجيات اللغوية والثقافية على اللغة والهوية الجماعية»، **الفكر العربي** السنة السادسة عشرة، العدد ٨٠.
- الذوادي، محمود (٢٠٠٨) الهاتف الجوال والحاسوب وترسيخ التخلف الآخر في المجتمعات المغاربية، **المستقبل العربي**، العدد ٥٦، تشرين الأول، ص ٩٧ – ١٠٧.
- الذوادي، محمود (١٩٩٧): في محددات الهوية الجماعية وإشكالياتها: المجتمع التونسي الحديث نموذجا، **المستقبل العربي**، عدد ٢١٧، آذار/مارس .
- الذوادي، محمود (٢٠٠٦) **الوجه الآخر للمجتمع التونسي الحديث**، تونس، تبرالزمان.
- الذوادي، محمود، الفرونكوأراب الأنثوية بالمغرب العربي، **شؤون عربية**، ١٩٨١.
- الذوادي، محمود، الفرنكوأراب الأنثوية المغاربية كسلوك احتجاجي على اللامساواة مع الرجل وكرمز لكسب رهان الحداثة، **دراسات عربية**، العدد ¾ كانون الثاني/شباط ١٩٩٦.
- الفهري، عبد القادرالفاسي (٢٠٠٥) **أزمة اللغة العربية في المغرب بين اختلالات التعددية وتعثرات الترجمة**، الرباط، منشورات زاوية للفن والثقافة.
- القاسمي، علي (٢٠٠٣): تعريب التعليم العالي – هل ضروري حقا؟–**المنهل**، العدد ٥٨٥، مارس أبريل.

- **اللسان العربي وإشكالية التلقي** (كتاب جماعي ٢٠٠٧) بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- **اللغة العربية والوعي القومي** (كتاب جماعي١٩٨٤) بيروت، مركزدراسات الوحدة العربية.
- **اللغة العربية: أسئلة التطور الذاتي والمستقبل** (كتاب جماعي ٢٠٠٥) بيروت، مركزدراسات الوحدة العربية.
- **النوع الاجتماعي والتنمية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا** (كتاب جماعي) واشنطن، البنك الدولي (بالإنجليزية) تُرجم إلى العربية ونُشر من طرف دارالساقي، بيروت ٢٠٠٥.
- أنجرس، موريس (٢٠٠٤) **منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية: تدريبات عملية**، الجزائر، دار القصبة للنشر.
- بوقمرة، محمد هشام (١٩٨٥) **القضية اللغوية في تونس**/ الجزء الأول، تونس، سلسلة الدراسات الأدبية رقم ٦.
- **دستورالجمهورية التونسية** (١٩٩٨) تونس، منشورات المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية.
- عبد السلام، أحمد (١٩٩٤) **المدرسة الصادقية والصادقيون**، قرطاج، بيت الحكمة.
- عبد الوهاب، حسن حسني (١٩٦٥) **ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية**/ القسم الأول، تونس، مكتبة المنار
- رجب، أحمد إيمان: الهوية: تأثيرالثقافة والدين والتقاليد في العلاقات الدولية، **ملحق مجلة السياسة الدولية**، أكتوبر٢٠١١.
- **فهرس مجلة المستقبل العربي**: من السنة الأولى حتى السنة الخامسة والعشرين (الأعداد ١ –٢٩٠: مايو ١٩٧٨ – أبريل ٢٠٠٣).
- وافي، علي عبد الواحد (١٩٤٦) **فقه اللغة، القاهرة**، دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- وافي، علي عبد الواحد (١٩٥١) **اللغة والمجتمع**، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.

باللغات الأجنبية :

- Abdelilah –Bauer, B.(2008) *Le défi des enfants bilingues :Grandir et vivre en parlant plusieurs langues,* Paris, La Découverte.
- Alatas Syed Hussein (1972) "The Captive Mind in Development Studies", *International Social Sciences Journal,* 14 (1):925-.
- Chomsky, N.(1975) *Reflections on Language,* New York, Pantheon..Clement, R. » Aspects socio-psychologiques de la communication interethnique et l'identité sociale » et Landry, R. « Bilinguisme additif, bilinguisme soustractif et vitalité ethnolinguistique » *in Recherches Sociologiques* : identité ethnique et culturelle, vol. XV, no.21984 ,3/.
- Compiègne, I.(2011) *La société numérique* en question, Auxerre Cedex, Editions Sciences Humaines.
- Coulmas, F(2008) *The Handbook of Sociolinguistics,* Maldan, Blackwell Publishing.
- Dahrendorf, R.(1974) *Homo Sociologicus,* Hamburg, Westdeutcher Verlag.
- Davidson, I. & Noble, W (1989) "The Archaeology of Perception: Traces of Depiction and Language, *Current Anthropology,* 30, 125156-.
- Dhaouadi, M.(2002) *Globalization of the Other Underdevelopment: Third World Cultural Identities,* Kuala Lumpur, A.S.Noordeen, 2002.
- Dhaouadi, M, "Arab Cultural Concepts for Cultural Sociology", *Contemporary Arab Affairs,* Vol.I, No.1, January 2008, pp.7682-.
- Dhaouadi, M, Un essai de théorisation sur le penchant vers l'accent parisien chez la femme tunisienne, *International Journal of the Sociology of Language,* No.122, 1996, pp.107125-
- Grosjean, F(1982) *Life with Two Languages: An Introduction to Bilingualism,* Cambridge, Harvard University Press.
- Hays, P. (1987) *Modernization, Stress and Psychopathology in Tunisian Women* (Unpublished Ph.D Thesis) University of Hawai.
- Holmes, J. & Meyerhoff, M., Eds,(2005) *Handbook of Language and Gender,* Oxford, Blackwell Publishing.
- Jahoda, M.(1966), and Warren, N., (eds) *Attitudes,* Middlesex, Penguin Books.

- Kivisto, P.(2002) *Multiculturalism in Global Society,* Oxford, Blackwell Publishing.
- Kraus, P (2008) *A Union of Diversity: Language, Identity and Polity-Building in Europe*, Cambridge, Cambridge University Press
- Kroll, J. & Groot, A. Editors (2009) *Handbook of Bilingualism: Psycholinguistic Approaches*, Oxford, Oxford University Press
- Leclerc, J.(1986), *Langue et société*, Laval, Mondia Editeurs
- Manis, J. & Meltzer, B. Editors (1968) *Symbolic Interaction; A Reader in Social Psychology*, Boston, Allyn & Bacon.
- Merton, R. and Sills, D., Editors (1991) *The Macmillan Book of Social Science Quotations*, New York, Macmillan Publishing Company
- Pinker, S.(1995) *the Language Instinct: How the Mind Creates Language,* New York, Harper Perennial.
- Porter, J, "Canadian Character in the Twentieth Century", in *Annals* (Mar.1967), 49.
- Ruano-Boballan, J.C (1998), (coordinateur) : *L'identité : l'individu, le groupe, la société*. Editions Sciences Humaines, Auxerre.
- Ruf.W.K,(1974),*« Dépendance et aliénation culturelle » in Indépendance et Interdépendance au Maghreb,* CNRS, Paris
- Schur, E.M.(1980), *The Politics of Deviance,* Englewood Cliffs, N.J.Prentice-Hall.
- Seidman, S. (2008) *Contested Knowledge: Social Theory Today* (4th edition), Oxford, Blackwell Publishing
- Semashko, L. and others (2006) *International Sociology Review of Books,* Vol.2, no.6, pp.82938-.
- Simon, J.(1969) *Basic Research Methods in Social Science,* New York, Random House.
- Wolff, J., "Cultural Studies and the Sociology of Culture", *Contemporary Sociology,* Vol.28, no.5, September1999, pp.499506-.
- Wurm, S.(2001) *Atlas of the World's Languages in Danger of Disappearing,* Paris, Unesco Publishing.